المُنافقُونَ

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾

(الجزء الأول)

الطبعة الأولى
١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤م

Web: www. Alaqsasalafi.com

منشورات الدَّعوَة السَّلَفيَّة
كتاب رقم (١١٠) جديد

المُنافقُونَ
﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾

(الجزء الأول)

تأليف:
هشام بن فهمي العارف

القدس ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

المحتويات

المقدِّمَة ٧

(١) هلع المنافقين لأول وهلة ١٧

(٢) النفاق جريمة وفضيحة ٢٣

(٣) أول وصف للمنافقين تناوله القرآن العظيم ٢٩

(٤) نتاج الابتلاء إذا لحق بالمنافق إيذاء ٣٣

(٥) المنافقون انتهازيون ٣٩

(٦) عند الامتحان: المؤمن يكرم، والمنافق يهان ٤٣

(٧) حيلة المنافق الخدّاع؛ المراوغة والخداع ٤٩

(٨) علَّة المنافق المخدوع؛ قلبه المريض الخنوع ٥٥

(٩) الترياق من سموم النفاق ٦١

(١٠) أقبح علامات المنافق: الكذب ٧٣

(١١) الفساد أخص مشروعات المنافقين الأوغاد ٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد؛

يعاني – قسم كبير من الناس وهم لا يشعرون – من الداء العضال الذي اسمه النفاق، وقد خفي أمره على الناس حتى كادوا لرقة دينهم يعتبرونه فضيلةً وخلقاً لا بدَّ منه، حتى صارت عبارات: (**مَشِّ حالك**)، و (**هيك الدنيا بدها**)، و (**اللي بمشي عِدِل ما بعيش**)، و (**بِدَّك إنت تقيم الدين في مالطا**)، و (**ليش ماسِك السُّلَّم وماشي فيه بالعرض**) ونحوها من العبارات التي يأبى المؤمن السوي أن يجاري فيها أو يجامل، بل أصبحت من شعارات المنافقين الذين يحبطون الشباب الصاعد إن أراد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

لذلك تحوَّل المشهد في المجتمعات الإسلامية بعد هذا الداء الخبيث إلى لون مقبول لدى قطاعات واسعة من الناس، بل صارت الحياة به عصرية! وبدونه عند الكثير صعبة! إلى أن غدا فاعل الخير – على زعمهم – (**أهبل**)، والطيب (**على نياته**)، والصادق (**على البركة**)، والمستقيم (**درويشاً!**)[1]

(١) درويش: في نظام الصوفية: الزاهد الجوال. والدُّرْشَةُ: بالضَّمِّ: اللَّجَاجَةُ، نَقَلَه الصّاغَانِيّ. ومنه اشْتِقَاقُ الدَّرْوِيش، بِمَعْنَى الفَقِيرِ الشَّحّاذِ السائِلِ، وأصلها فارسية.

وهكذا، وقد أملى الشيطان عليهم بحيله حتى ظنوا أنفسهم قدوة الناس في الخير، والوعظ، والإرشاد.

فعلى المسلمين الحذر من هذا الداء الخبيث، الذي هو أشدُّ خطراً وفتكاً من الإيدز والسرطان، إن جهود الناس في المجتمعات الإنسانية تركزت فقط على أمراض البدن، وأهملت بشدَّة أمراض القلب، مع أن معالجة أمراض القلب أنفع بكثير لها من معالجة أمراض البدن، بل إن صحة البدن في غالب أحواله متوقفة على صحة القلب.

واعلم أن جريمة النفاق من أكبر الجرائم التي يرتكبها المجتمع بحق نفسه إذا هو سكت عنها ولم يعالجها على منهاج النبوَّة والسلف.

والمنافق إذا مرد على النفاق فإن خاتمته لن تكون على ما يرام، بل يخشى عليه - في الغالب - الانزلاق إلى الكفر الأكبر فَيُحْبَط عمله، ومن ثَمَّ يجرُّ خيباته إلى قبره، كما قال النبي ﷺ:

١ - «**يبعث كل عبد [في القبر] على ما مات عليه، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه**». (١)

والمضحك أن المنافق إذا بعث يوم القيامة وجد نفسه منافقاً يريد أن يمارس النفاق من جديد، فتكون فضيحته على الأشهاد جزاءً وفاقاً، بعد أن كان يداريها في دنياه بالرياء والتظاهر نفاقاً.

إن أول وصف للمنافقين تناوله القرآن العظيم التظاهر بالإيمان، فكان المراد بقوله تعالى:

٢ - ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ . . (٨)**﴾

---

(١) **أخرجه أحمد، والطبراني في "الأوسط"، وابن حبان في "صحيحه"، وقال شيخنا الألباني - رحمه الله - في "ظلال الجنة"(١١٥/٢): " وإسناده جيد في الشواهد والمتابعات".**

بمثابة التحذير من هذا الصنف الخبيث، الذي اتخذ من اللون الرمادي ما يجعله بظنه مقبولاً لدى الأبيض (المؤمن) والأسود (الكافر)، لكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد إذ أخزاهم وكذَّبهم، ففي ختام الآية قال:

٣- ﴿. . وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾[١]

فكشف الله تعالى لنا تلونهم وزيف إيمانهم، فطاعة الله ورسوله إما أن تكون ادعاءً وإما حقيقةً، إما كذباً وإما صدقاً، فليس كل من قال: سمعت؛ صدق!

فالابتلاء على السمع والطاعة، من منازل الغربلة والتمايز، وهي سنَّة الله تعالى في خلقه مستمرة إلى يوم القيامة، وهي ظاهرة صحية أراد الله بها العافية للأمة، فمتى نزل الابتلاء بالناس صاروا إلى حقائقهم، فمن كانت طاعته لله ورسوله ﷺ على الحقيقة وفِّق للسعادة، ومن كانت طاعته لله ورسوله ﷺ كذباً ورياءً وادعاءً وأهواءً كشفه الله وعرّاه وأخزاه، وكان مصيره إلى الشقاوة. قال القاضي الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ:

٤- «**الناس ما داموا في عافية مستورون، فإذا نزل بهم البلاء صاروا إلى حقائقهم، فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه**».

ولم يتوقف تحذير الله تعالى من المنافقين عند حدِّ ما عرضه عنهم في كثير من سور القرآن، بل جعلهم الله تعالى العدو البارز المتميز، لأنه عدو مخادع ماكر فقال:

٥- ﴿. . هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ. . (٤)﴾[٢]

فلا يغرنك تبسُّطُهم في الكلام على وجه التودد والتقرب، ولا تأمنهم، وإياك أن تجعلهم بطانتك، ولا تصدِّقهم، ولأنهم أصحاب حيل وخداع

(١) سورة "البقرة".
(٢) سورة "المنافقون".

فينبغي الحذر منهم. كتب إبراهيم بن عيسى إلى سعيد بن العباس الرازي -رحمهما الله-:

٦- «واعلم يا أخي أنك في الزمان الذي وصفه الله فقال:

٧- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾[١]

والزمان الذي لا تدري ذا المال من أين اكتسب ماله، أمن حلال أم من حرام؟

والزمان الذي قال النبي ﷺ:

٨- «يصدَّق فيها الكاذب، ويكذَّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة». [٢]

والزمان الذي كان أصحاب النبي ﷺ والتابعون يخافونه، فقد ابتلينا بكثرة الهوى والخصومات في الله، والمجادلة في القرآن، وقد أميتت السنن، وأحييت البدع.

وأرجو - إن شاء الله - لو لم يبق أحد في الدنيا إلا رجل واحد من أهل السنة والجماعة لكان أكثر؛ لأنه دين الله الأعظم، الذي أظهره على الدين كله، ولو كره المشركون.

وقد ينبغي أخي للعاقل أن يعرف أهل زمانه، ولا يأتمن على دينه أحداً، فإن العبد إذا علم أنه خلق وحده، ويموت وحده، ويحاسب وحده، وما قدَّر الله له من الذنوب والخطايا لا يحمله عنه غيره، يكون حذراً، ويتوقع رسول رب العالمين عند كل نفس، وعند كل كلمة، وعند كل خطوة.

والدنيا ميدان الله، والمؤمنون خيل الله، اليوم المضمار، وغداً السباق، ولا يجاوز الصراط إلا كل ضامر مهزول من خشية الله، واعلم يا أخي أن الأمر جد ليس بالهزل.

---

(١) «سورة البقرة".

(٢) أخرجه احمد، وابن ماجه، والحاكم، وهو في "السلسلة الصحيحة" (١٨٨٧) و (٢٢٥٣).

واسأل الله أن يجعل مرافقتك مع أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق، ومع عثمان ذي النورين، ومع علي بن ابي طالب، أخي رسول الله، وابن عمه ختن رسوله، وسيف رسوله، يبارز الأقران بين يدي رسول الله ﷺ فهؤلاء الخلفاء الراشدون المهديون الذين عملوا بطاعة الله، وبكتابه، وسنة نبيه ﷺ». [1]

فلا عداء أبلغ من عداء المنافقين، ولا فساد أعظم من فسادهم. وهذا الذي دعاني إلى الكتابة محذِّراً من النفاق، ومحذِّراَ من المنافقين، وجعلت هذه المقدمة للجزء الأول من هذا الكتاب الذي سميته: «**المنافقون**» ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**﴾. قال ابن القيم -رحمه الله-:

٩- **«فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد، فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه! وكم من علم له قد طمسوه! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه! وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها! فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون».** [2]

ثم قال -رحمه الله-:

١٠- **«لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران،**

---

(١) نقلتها بتصرف يسير من كتاب "طبقات المحدثين" لأبي الشيخ المتوفى سنة (٣٦٩) هـ. فهذه حال أيام من نقل عنهم أبو الشيخ - رحمه الله - فما حال أيامنا.

(٢) "مدارج السالكين" (١/٣٤٧-٣٤٨).

فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيَّزت إلى الكفّار».[1]

والمنافقون انتهازيون وأهل بدع وأهواء، ويرقبون الحوادث عن كثب، رغبة في دنيا، أو رغبة في وقوع مصائب تُلحق بالمسلمين الشر.

وفي القرآن من ذكر المنافقين في عامة السور المدنية ما لا يمكن استقصاؤه.

قال ابن كثير –رحمه الله–:

١١- «**ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس، أطنب في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور، وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتجتنب، ويجتنب من تلبس بها أيضًا**».

ومن كمال علمه وحكمته سبحانه أنه جعل طوائف الناس ثلاثاً لا رابع لها: المؤمن، والمنافق، والكافر، ثم أخبرنا سبحانه أنه يختبرهم ويبتليهم ليميز الخبيث من الطيب. وأوجز قتادة – رحمه الله- وصف المنافق بكلمات فقال:

١٢- «**خنع الاخلاق، يصدق بلسانه وينكر بقلبه، ويخالف بعمله، ويصبح على حال ويمسي على غيره، ويمسى على حال ويصبح على غيره، يتكفأ تكفأ السفينة كلما هبت ريح هب معها**».[2]

وأقبح علامات المنافق: الكذب، حتى جعل الحسن البصري الكذب جماع النفاق، ويبدو لي أن الكذب علامة كافية لنعت من يكذب بالنفاق، وإذا كان الكذب على رأس علامات المنافق فلأنه يكذب على الله، ومن كذب على الله وتظاهر بالإصلاح، فإنه من المفسدين في الأرض.

لقد هتك الله تعالى أستار المنافقين، وبيَّن من صفاتهم في القرآن وعلى لسان

---

(١) "مدارج السالكين" (٣٤٩/١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"، ونقله ابن كثير في "تفسيره".

النبي المصطفى ﷺ الكثير، من أجل أن يكون المؤمن الفطن حذراً منهم، وسيأتي في الكتاب – إن شاء الله – بيان نوعي النفاق، وأن المنافق إما أن يكون نفاقه عقدياً (أكبر) يخرجه من الملَّة لأنه يظهر الإسلام ويبطن الكفر، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–:

١٣ – «**فَمِنْ النِّفَاقِ مَا هُوَ أَكْبَرُ وَيَكُونُ صَاحِبُهُ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ؛ كَنِفَاقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أبي وَغَيْرِهِ؛ بِأَنْ يُظْهِرَ تَكْذِيبَ الرَّسُولِ أَوْ جُحُودَ بَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ أَوْ بُغْضَهُ أَوْ عَدَمَ اعْتِقَادِ وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ أَوْ الْمَسَرَّةَ بِانْخِفَاضِ دِينِهِ أَوْ الْمُسَاءَةَ بِظُهُورِ دِينِهِ. وَنَحْوِ ذَلِكَ: مِمَّا لَا يَكُونُ صَاحِبُهُ إلَّا عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ**».[1]

أو يكون نفاقه عملياً (أصغر) يخشى عليه من سوء الخاتمة، والنفاق جريمة، وجريمة المنافق العملي في سلوكه وفي أخلاقه وفي عبادته، لذا فإنه:

كذاب أثيم، يخلف في وعده، خائن، غدّار، فاجر، لدود، مداهن، مراءٍ، لا يحب مجالس العلم، لا يذكر الله إلا قليلاً! عديم الفائدة، حسود، منتفع، انتهازي، خبيث، متملِّق، متذبذب، مضطرب، مهموم، مخادع، متلاعب، متلون، مبتدع، ضال مضل، متشدِّق، متفيهق، ثرثار، مبغض للحق وأهله، يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، جبان، لمّاز، همّاز، مشاء بنميم، حلاّف مهين، شكاك، سيء الظن، فعله يخالف قوله، شحيح، سمّاع للكذب، أكال للحرام، مرتشٍ، يحكم بالباطل، يحكم بالقوانين الوضعية المخالفة لشرع الله، جاسوس ينقل أخبار المسلمين لأعدائهم، يتخلف عن صلاة الجماعة، كسول عن الصلاة، نشيط لجمع المال، ينقر صلاته، يتظاهر بالخشوع، يحب الشهرة، ويحب أن يحمد، ويحب أن يمدح، يكره السنَّة، سخوط، إلى غير ذلك من الموبقات التي سوف نبيِّنها

(١) "مجموع الفتاوى" (٢٨/٤٣٤).

في هذا الكتاب.

واعلم أن الغربلة تكون بعد ظهور النفاق، والغربلة من توفيق الله تعالى، لأنها تخرج الخبيث من صفوف أهل الحق، وقد نبَّهت إليها في اللقاء العلمي الذي جرى بمدينة رام الله تاريخ ١٥/ ٤/ ١٤٣٠ وفق ١٠/ ٤/ ٢٠٠٩ بعد خروج الفوج الأول من المنافقين، فقلت فيه:

١٤- **«وهذا الزمن زمن الغربلة يتميّز فيه الصادق من الكاذب، وفي زمن الغربلة لابد أن يظهر المنافق من المؤمن، وهذا مصداق لقوله ﷺ:**

١٥- **« حتى يصير الناس إلى فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه»**.[1]

وقلت:

١٦- **«هذا زمن خطير ومخيف، خطير على كل من تخلّق بخلق المنافقين»**.

وقلت:

١٧- **«وأنا أعد المنافقين جميعاً بحربٍ شرسة من الله عز وجل تزيدهم فضيحة وخزياً، وسوف يموتون غيظاً وهماً. إن شاء الله رب العالمين. لكن كما أعدهم أطلب منكم بارك الله فيكم، أن تجددوا إيمانكم مع الله، بأن يكون عملكم دائماً خالصاً لوجهه عز وجل، وأن يكون ولاؤكم خالصاً لله عز وجل، وأن تتبرؤوا من كل ما يغضب الله عز وجل»**.

وقلت:

١٨- **«أي أسلوب يفعله أو يصنعه أحد من الناس لا يريد فيه وجه الله أُبشِّرُهُ من الآن سيكون مفضوحاً، كما فُضِحَ سابقوه، وأنا أقول: بارك الله فيكم؛ الحمد لله هذه الدعوة تزداد تمكيناً، وتزداد قوة، وانظروا إلى دعوات**

(١) أخرجه أبو داود، والحاكم، وأحمد، وهو في "السلسلة الصحيحة" (٩٧٤).

الأنبياء ـ نحن لسنا بأنبياء ـ ولكن نقول: دعوتنا السلفية على منهاج النبوة والسلف، فإذا كنا حقاً على منهاج النبوة والسلف سنرى ما رآه الأنبياء من أذى الباطلين ومن نصرٍ لله عز وجل مؤزّراً ومن ظهور واضح لأهل الحق؛ وهذه سنة الله عز وجلً في هذه الدعوة، وهذه الدعوة جاءت والله حتى تكون خيراً للعالمين، لكن ليست المسألة في الدعوة بقدر ما هي فينا نحن إن استمرينا في صدقنا لله عز وجل، سنرى ما يفرحنا، وهذه الجلسة والله فرح بعدما نظفنا من الأوساخ.

هل نحن أخرجناهم - هؤلاء الذين خرجوا -؟ لا والله ما أخرجناهم، هم اختاروا بمحض إرادتهم الخروج لأن نفوسهم خبيثة ليس لها مكان بيننا».

وقلت:

١٩- «نحن الحمد لله رب العالمين، نعرف من هم مشايخنا، نعرف كتابنا كيف نفهمه، السلف كيف كان يفعلون، والأنبياء من قبلهم. هذا أمامنا طريقهم واضح لكن ينقصنا نحن الصدق مع الله عز وجل، إن كنت صادقاً سترى ما رآهُ الأنبياء، وان كنت كاذباً سترى ما رآه من خالف الأنبياء».

وقلت:

٢٠- «ونحن اجتماعنا بارك الله فيكم اجتماع طيب، لكن هؤلاء الناس ما وسعهم هذه الفرحة، كل الذي فعلوه من تأليب السلطة والناس علينا والعوام؛ وما زالوا يركضون ليلاً ونهاراً مُعذّبين حتى يهدأوا، ليس لهم هدوء إلا بشيء واحد وهو السعي في النميمة، وأن يكونوا حمالي حطب، مثل أم جميل زوجة أبي لهب الذي كان يتبع النبي ﷺ وكلما قال النبي ﷺ:

٢١- «يا أيها الناس قولوا: (لا إله إلا الله) تفلحوا».

هو يسير خلفه ويقول:

٢٢- «**إنه صابئ كاذب**». [١]

وقلت:

٢٣- «**وأنتم انظروا إلى مجتمعنا غارق بالفساد، إذا انتم بارك الله فيكم ما صمدتم ولا تحملتم مسؤولية حمل الحق ستروا في هذا المجتمع المزيد من الفساد، وبالتالي قرب العقاب، ولكن نسأل الله أن ندرأ عن هذا المجتمع الفتن والعقاب، بسبب صدق توجهنا إلى الله عز وجل، فنحن بفضل الله نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ولا نخشى في الله لومة لائم، مهما أدت الأمور هل سنكون أفضل من الأنبياء؟ هل سنكون أفضل من السلف؟ نحن على طريق السلف، إذن سنرى ما رأوه ولكن على موعد من الله أننا بحق نكون مع الظاهرين**».

٢٤- «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**». [٢]

وكتب

هشام بن فهمي بن موسى العارف

القدس حرسها الله من كيد المنافقين والمعاندين

صباح يوم السبت

١٤٣٥/٢/١٨ وفق ٢٠١٣/١٢/٢١

---

(١) أخرجه أحمد، وغيره، وسنده صحيح.

(٢) متفق عليه، وأخرجه أحمد.

(١)
هلع المنافقين لأول وهلة

الدعوة السلفية هي دعوة الرسل والأنبياء، وممن انتمى للدعوة السلفية في القدس كان غرضه الانتفاع، أو قضاء مصالح، أو يستعملها ليخفي سوءته فيبدو أمام الناس تائباً طائعاً لله، أو يستعملها رياء فيظهر مشيخة سليمة من العيوب والجرائم، وهو في الحقيقة شيخ مزيَّف دجّال لم نكن نعرفه، حتى سلكت الأمور معه إلى حين موعد الابتلاء، فتبيَّنت حقيقته لذي عينين، وظهرت أخلاقه التي كان يخفيها بين جنبيه، ثم لجبنه بعد ظهوره عارياً من الصدق، اعتمد الكذب والتلفيق ليواري عورته، وكلَّما انكشف أكثر، كذب أكثر، حتى صار الكذب ديدنه، وفي هذه الحلقات القصيرة - إن شاء الله - سوف أعرِّف القاريء من المنافق الذي اعتمد الدجل دستوره في الحياة، ليحذر كل مؤمن هذه الفئة من الناس التي تعيث في الأرض فساداً من غير رحمة. فأقول وبالله التوفيق:

ابتليت البشرية بعد آدم بنوح عليهما الصلاة والسلام، فكان نوح أول نبي أرسله الله إلى الأرض، فعن أنس أن النبي ﷺ قال:

٢٥- «**أول نبي أرسل نوح**». [١]

وله شاهد قوي عن أبي هريرة مرفوعاً في حديث الشفاعة الطويل وفيه:

(١) أخرجه الديلمي في "مسنده"، وابن عساكر في "تاريخه"، وهو في "السلسلة الصحيحة"(١٢٨٩).

٢٦- «**فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض**». [١]

ولا يعني أن آدم لم يكن نبياً مبلغاً، فالله تعالى نص على أنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل فقال تعالى في سورة الحج:

٢٧- ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ . . (٥٢)**﴾

والنبي يوحى إليه شيء يوجب على قومه أمراً، وهذا لا يكون إلا مع وجوب التبليغ، ولا أدل على ذلك من قول النبي ﷺ:

٢٨- «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم . . الحديث**». [٢]

قال شيخنا الألباني عقب الحديث:

٢٩- «**وفي الحديث فوائد كثيرة، من أهمها أن النبي يجب عليه أن يدعو أمته إلى الخير ويدلهم عليه، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، ففيه رد صريح على ما ذكر في بعض كتب الكلام أن النبي من أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ**».

وفي مقالتي بعنوان:

٣٠- «**يبتلى المسلمون اليوم بالدعوة السلفية، كما ابتلي بنو إسرائيل بأبي القرن**». [٣]

قلت:

٣١- «**لقد كان الابتلاء في نصرة الدعوة السلفية بعد ظهورها في القدس سهلاً، لكن نفوس الساقطين، والمنافقين، والخونة، والحزبيين، طلبت السّفول والسّفالة لأنها نفوس خبيثة منحطَّة، وترفّعت عن العمل في سبيل الله بصدق وإخلاص، وآثرت الدنيا على الآخرة، فكان جزاؤها أن رمى الله بها في أوحال الدجل من الأقوال، والرذيلة من الأفعال، فأخزاها الله، فها**

(١) أخرجه مسلم، والترمذي، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح".

(٢) أخرجه مسلم، والنسائي، وأحمد وهو في "السلسلة الصحيحة" (٢٤١).

(٣) تاريخ ١٤٣١/٠٩/١٤ وفق ٢٠١٠/٠٨/٢٤

هي تحصد كل يوم فساد أعمالها، لذا فإنك تراها بعد أن هتك الله سترها قد اتخذت من الهاوية التي سقطت فيها ممراً لعداء الدعوة السلفية في المسجد الأقصى، لتنتعش في أوساط أمثالها من الساقطين المبتدعة والحزبيين والمنافقين، لذا احتجّت بحجج أوهى من بيت العنكبوت لتتنصّل من وخم صنيعها الذي فشلت فيه حين أرادت مجتمعة هدم الدعوة السلفية في القدس، فهي تزداد يوماً بعد يوم خزياً وعاراً بعد أن تكشَّفت الحقائق لكل عادل ومنصف».

من السهل الفصل بين المؤمن والكافر، لكن ليس من السهل الفصل بين المؤمن والمنافق، ولكثرة المنافقين وعموم الابتلاء بهم فإن الله عز وجل جلّى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، فذكر لهم في مقدمة كتابه العزيز في مطلع سورة البقرة ثلاث عشرة آية، بينما اقتصر على ذكر آيتين في حق الكفار.

وهذا يدل على خطورة المنافقين واستطاعتهم التغلغل في جميع أوساط المجتمع، ويصعب أحياناً على من لا دراية بهم معرفتهم، إنما يسهل كشفهم ـ بفضل من الله ـ إذا وقعوا تحت بصر الطائفة المنصورة وأعوانهم من الفرقة الناجية. لذلك يفرّون من أهل الحق.

ففي جميع أوساط المجتمع على مختلف اتجاهاته وتنوع انتماءاته يوجد المنافقون، يعيشون في أحضان هذه الأوساط إلا وسط أهل الحق لأن الله تعالى أكرمهم بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبشعيرة الجرح والتعديل، فهم لا يخافون لومة لائم ويكشفون بحكمة عفانة المجتمع المتمثل بنفاق هؤلاء السفلة.

٣٢- «**وإنما طال الحديث عن طائفة المنافقين بما لم يطل به عن الطائفتين الأخريين، (المؤمنون، والكفار)، لأن طائفة المنافقين ذات ألوان مختلفة، وأقنعة**

متعددة، والكشف عن جوهرها المعقد، وعن شخصيتها المزدوجة، وعن تناقض مظهرها مع مخبرها يحتاج الى مزيد من الأضواء وتنويع في الصور، وتكثير من الأمثال، وذلك حتى يكون المؤمنون على كامل البيِّنة ومنتهى الحذر من دسائس المنافقين ومؤامراتهم وأخطارهم ويعرفوهم بسيماهم معرفة كاشفة». [1]

منذ زمن قريب جداً، قبل الفتنة التي بدأها ابن حسَّان الفتَّان، قلت:

٣٣- **«إن أخطر ما تواجهه الدعوة السلفية ـ اليوم ـ النفاق والمنافقين».**

وقلت:

٣٤- **«وكلما ازدادت الدعوة السلفية شوكة، ازدادت حيلة المنافقين بالانتساب إليها زوراً وبهتاناً».**

وقلت:

٣٥- **«على علم من ربي أن هذه الصيحة يخشاها من في قلبه مرض النفاق».**

وقلت:

٣٦- **«حين يكتب العالم السلفي في النفاق والمنافقين، ليس كغيره في الكتابة. لأنه يكتب وقلبه ولسانه وقلمه وكل جارحة من جوارحه تشد بعضها بعضاً في بيان الحق».**

إن مدخل الشر على الدعوة السلفية من جهة من أحسن التمثيل على السذج الهَمج الرعاع، ولبس لباس السلفية وليس منهم.

وقد شرعت في بيان حال المنافقين وصفاتهم يوم سئلت على شبكة الدعوة السلفية من المسجد الأقصى ـ التي خرَّبها المخرّبون المنافقون ـ عن حال المدعو «حسام عفانة»، فجعلت على رأس المقالة التي بيَّنت فيها حاله وحال شيخه

(١) "التيسير في أحاديث التفسير".

القرضاوي عنواناً:

٣٧- «**خطر النفاق والمنافقين**».[١]

وابتدأت مقالتي بقوله تعالى:

٣٨- **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾**.

وقلت:

٣٩- «**والكفرة على اختلافهم ونحلهم معروفون، كفرهم واضح صريح متسم بالعناد والمكابرة، فليسوا في الدرك الأسفل من النار**».

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في «تفسيره» (١/ ٤٨):

٤٠- "**النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب**».

(١) تاريخ ١٤٢٩/٢/١٣ وفق ٢٠٠٨/٢/٢٠

(٢)
النفاق جريمة وفضيحة

ردَّ المبتدعة بيان النبي ﷺ إن لله تعالى ساقاً تليق بكماله سبحانه وتعالى، فتأول الجهمية ومنهم الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة الساق في قوله تعالى في سورة «القلم»:

٤١- ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ(٤٢)**﴾

بالشدة والأمر العظيم، ولحق بهم بعض أهل اللغة، وهذا التأويل الذي اعتمدوه في كتبهم وتناقلوه في اعتقادهم فاسد مخالف لقول النبي ﷺ كما في رواية أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ:

٤٢- «**يكشف ربنا عن ساقه**». [١]

فالساق ساق الله عز وجل وهي صفة من صفات ذات الله سبحانه الخبرية، ثابتة لله تعالى في الكتاب والسنة الصحيحة ـ كما ترى ـ، لا يُظن أن الله ذو أعضاء وجوارح لأنه:

٤٣- ﴿**. . لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . (١١)**﴾[٢]

وقد روَّج المنافقون لهذه البدعة في أوساط المسلمين ليردّوا صفة ثبتت لله تعالى في الكتاب والسُّنَّة، وهم يصلّون معهم ويستقبلون قبلتهم!! والحديث

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في "صحيحه" (الفتح - ٦٦٣/٨) كتاب التفسير (باب يوم يكشف عن ساق) واللفظ له، وابن جرير (٤١/٢٩/١٤) وهو في "السلسلة الصحيحة" (٥٨٣)، وللحديث طرق وألفاظ، وهو حديث طويل مشهور.

(٢) سورة "الشورى".

في تفسير الآية صحيح ففي رواية له ـ رضي الله عنه ـ وهي صحيحة يرفعها :

٤٤- «**فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه**»؟

فيقولون :

٤٥- «**الساق، فيكشف عن ساقه**» .[١]

وفي رواية عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

٤٦- «**إذا جمع الله العباد بصعيد واحد، نادى مناد: يلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، ويبقى الناس على حالهم، فيأتيهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا وأنتم ههنا؟ فيقولون: ننتظر إلهنا، فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون: إذا تعرف إلينا عرفناه، فيكشف لهم عن ساقه، فيقعون سجوداً، وذلك قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾** وذكر الحديث .[٢]

وفي رواية عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ :

٤٧- «**فيأتيهم فيقول: ما لكم لا تنطلقون كما انطلق الناس؟ قال: فيقولون إن لنا إلها ما رأيناه بعد، فيقول: هل تعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: إن بيننا وبينه علامة، إذا رأيناها عرفناه، قال: فيقول: ما هي؟ فيقولون: يكشف عن ساقه. قال: فعند ذلك يكشف الله عن ساقه**» .[٣]

في هذه الآية توبيخ للمكذبين على رأسهم المنافقين بترك السجود لله تعالى

---

(١) أخرجه الإمام البخاري أيضاً في الصحيح (الفتح ١٣/ ٤٢٠/ رقم ٧٤٣٩)، ومسلم، وأخرجه البيهقي في "الأسماء والصفات"، وابن منده في "الرد على الجهمية"، وأخرجه مختصراً البغوي في "شرح السنة"، وقال: هذا حديث صحيح، وأخرجه أبو عوانة، وابن خزيمة في "التوحيد"، والحاكم، وأحمد، فالحديث صحيح مستفيض.

(٢) "السلسلة الصحيحة"(٥٨٤).

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في "السنة" (١٢٠٣)، ومن طريقه الطبراني في "المعجم الكبير" (٩٧٦٣)، والبيهقي في "البعث والنشور" (٤٣٤) وهو في "صحيح الترغيب والترهيب" (٣٥٩١) و (٣٧٠٤).

بإخلاص وعبودية، وتهديدهم بشدة، لقد امتنع كل الكفّار في الدنيا عن السجود لله وسجد المنافقون رياءً، فكان سجودهم عارياً عن الإخلاص قال ابن عطية:

٤٨- «**وخص السجود بالذكر من حيث هو أعظم الطاعات**».

وفي هذا اليوم العصيب الشديد في القيامة بعد البعث:

٤٩- «**يجمع الله العباد بصعيد واحد**».[١]

وفي رواية:

٥٠- «**يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينتظرون فصل القضاء**».[٢]

وفي هذا الموقف تظهر آية الله تعالى في المنافق، فالمنافق وإن حصل منه السجود في الدنيا؛ فسجوده ـ كما ذكرنا ـ خالٍ من الإخلاص والعبودية لله رب العالمين، لأنه بطبعه متردد متشكك متذبذب، لذا فهو يحاول في الدنيا أن يجمع بين أمرين، ويلعب على حبلين: الكفر في الباطن، والرياء في الظاهر، لكنه هنا في هذا الموقف العصيب سرعان ما تظهر حقيقته ويفتضح أمره عندما يجمع الله تعالى العباد بصعيد واحد ثم يكشف سبحانه عن ساقه الكريمة فيخرّ المؤمنون له سجوداً، أما المنافق فكما قال تعالى: ﴿**وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ**﴾ وقد فسَّر النبي ﷺ هذه الآية بقوله:

٥١- «**فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رئاء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً**».[٣]

---

(١) أخرجه الدارمي في "سننه" عن أبي هريرة مرفوعاً، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٥٨٤).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في "السنة" (١٢٠٣)، ومن طريقه الطبراني في "المعجم الكبير" (٩٧٦٣)، والبيهقي في "البعث والنشور" (٤٣٤) وهو في "صحيح الترغيب والترهيب" (٣٥٩١) و (٣٧٠٤).

(٣) سبق تخريجه في رقم (٢).

وفي رواية:

٥٢- «**ويبقى كل منافق، فلا يستطيع أن يسجد**». [١]

وفي رواية:

٥٣- «**ويبقى المنافقون ظهورهم طبق واحد كأنما فيها السفافيد، فيقولون: ربنا، فيقول: قد كنتم تدعون إلى السجود وأنتم سالمون**». [٢]

أراد المنافق في هذا اليوم العصيب أن يصنع الذي كان يصنعه في الدنيا، فلم يستطع، أراد أن يجرِّب تلك المسرحية التي كان يمثل بها امام المسلمين المؤمنين لكنه لم ينجح، ظَّن الخاسر أن سجوده في الدنيا وقد خلا من الإخلاص لله أن يعيده هنا في الآخرة فإذا بظهره يعود طبقاً واحداً.

فضيحة للمنافق في أول وهلة في الآخرة بعد البعث، المؤمنون يسجدون وهو يريد أن يفعل فعلهم لكنه لم يستطع!! لماذا؟ لأنه كان يسجد رياء وسمعة بعيداً عن العبودية الخالصة لله. كان باختصار يكذب على الله ويكذب على الناس في عبوديته لرب العالمين؛ يظهر الإسلام ويبطن الكفر. لقد تعدّى المنافق بذنب عظيم، تعدى في الدنيا بالنفاق، والنفاق جريمة والله تعالى قال في سورة «القلم»:

٥٤- ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥)**﴾

لقد مارس المنافق في الدنيا أبشع صور التضليل، نفعه نفاقه لمّا كان يسجد رياء وسمعه فحظي برعاية، لكنه في الآخرة عندما يفتضح أمره فماذا هو فاعل أمام الله وأمام من كان يمارس كذبه عليهم من المسلمين؟ وجاء في رواية:

٥٥- «**ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون وقد**

---

(١) "السلسلة الصحيحة"(٥٨٤).

(٢) أخرجها الحاكم في "المستدرك"، وابن أبي شيبة في "المصنف".

كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون».[1]

ومعنى الطبق: فقار الظهر، واحدتها طبقة. ومعنى صياصي البقر: أي قرونها. قال في «النهاية»:

٥٦- «**يريد أنه صَار فَقارُهم كُلُّه كالفَقَارة الواحدَة فلا يقْدِرُون على السُّجود**».

لقد مارس المجرم جريمة النفاق حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من أوصافه وأخلاقه كشف الله تعالى عن بعضها في سورة القلم وحذَّر منها فقال:

٥٧- ﴿**فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)**﴾

٥٨- ﴿**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠)**﴾

وقال:

٥٩- ﴿**هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١)**﴾

٦٠- ﴿**مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢)**﴾

٦١- ﴿**عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣)**﴾

وقوله تعالى في السورة:

٦٢- ﴿**خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ(٤٣)**﴾

فيها توبيخ آخر للمنافقين لأنهم كانوا يسجدون في الدنيا رياء وسمعة. قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ:

٦٣- «**أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحينئذ يدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون**

---

(١) سبق تخريجه في رقم (١١).

الذين كانوا يسجدون لله طوعًا واختيارًا، ويذهب الفجار المنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقَّت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة».

(٣)
أول وصف للمنافقين تناوله القرآن العظيم

قلت فيما تقدَّم :

٦٤- «**لقد مارس المنافق في الدنيا أبشع صور التضليل**» .

ومن هذه الصور «الادّعاء الكاذب» وقد أشار الله تعالى إليه ابتداء فقال :

٦٥- ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ . . (١٠)**﴾[1]

ادّعى المنافق أنه مؤمن فأدخل نفسه في جملة المسلمين، ففي الآية تنبيه للمؤمنين أن من الناس فريق يقول : ﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ**﴾ . قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

٦٦- «**ودلَّ ذلك على أن الناس في قولهم : آمنا ، صادق وكاذب ، والكاذب فيه نفاق بحسب كذبه**» . [2]

فالمسألة إذن في خطورتها كما هي في دقَّتها، لأن المنافق يدَّعي الإيمان .

فالمراد بقوله تعالى في الآية : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ**﴾ :

٦٧- « **المنافقون**» .

قاله : ابن عباس، وعبد الله بن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم .

والمنافقون يقولون بألسنتهم ﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ**﴾ وهم في باطنهم كاذبون لم يؤمنوا .

استعملوا ألسنتهم للكذب، وعبر القرآن بلفظ ﴿**يَقُولُ**﴾ ليفيد أنه مجرد قول

---

(١) سورة «العنكبوت».

(٢) كتاب " الإيمان الأوسط" لابن تيمية - رحمه الله - (١ / ١٥٨).

باللسان، لا أثر له في القلوب، وإنما هم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.
وأشار بعد الإيماء إلى كثرة هذا الصنف بالإسناد على ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿**آمَنَّا**﴾.

لقد أظهروا بقولهم الخير وأسرّوا الشر، وهذا كما قال ابن جريج:

٦٨- «**المنافق يخالف قَوْلُه فِعْلَهُ، وسِرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مَغِيبه**».

وهذا أول وصف للمنافقين تناوله القرآن الكريم، - من حيث ترتيب سور النزول سورة «العنكبوت»، ومن حيث الترتيب الموضوعي لسور القرآن سورة «البقرة» - يعلنون الإيمان وفي قلوبهم الكفر، ولذلك فإن إيمانهم كله تظاهر، إذا ذهبوا للصلاة تظاهروا بها، وإذا زكّوا تظاهروا، وإذا صاموا تظاهروا، وإن فعلوا خيراً تظاهروا، وإن حجّوا تظاهروا، وإن قالوا بالدين تظاهروا، وإن قالوا بالسلفية تظاهروا، فكل أقوالهم شعارات، وكل أفعالهم تظاهرات.

والمنافقون يتظاهرون ولا يرجون، أما المؤمنون فحين يصلّون أو يزكّون أو يفعلون الخير أو يقولون: نحن سلفيون فهم يسألون الله تعالى القبول ويرجون الجنة.

وبيَّن الله تعالى في سورة البقرة مما في ادعائهم الكاذب من زيادة فقالوا:

٦٩- ﴿. . **آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ** . . (٨)﴾

خدعة جديدة للتمويه! فأحاطوا ادعاءهم الكاذب بالإيمان من طرفيه: الإيمان بالله واليوم الآخر ليزيدوا الدَّجل ونثر الرماد في العيون، ففي قولهم: ﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ تلبيس على أنهم مؤمنون ببقية أركان الإيمان.

أخرج عبد بن حميد عن قتادة في تفسيره الآية قال:

٧٠- «**هذا نعت المنافق؛ نعت عبداً خائن السريرة، كثير الإخلاف، يعرف بلسانه**

وينكر بقلبه، ويصدِّق بلسانه ويخالف بعمله، ويصبح على حال ويمسي على غيره، ويتكفأ تكفؤ السفينة كلما هبت ريح هب فيها».

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن سيرين قال:

٧١- «**لم يكن عندهم أخوف من هذه الآية**».

وقد كذَّبهم الله تعالى في دعواهم الإِيمان في نص الآية ذاتها، فقال:

٧٢- ﴿**وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**. .(٨)﴾

لّما أنزل الله تعالى سورة البقرة فصَّل في مطلعها أصناف الناس: المؤمنون، والكافرون، والمنافقون. فجعل فيها أربع آيات في المؤمنين، وآيتين في الكافرين، وبضع عشرة آية في المنافقين. وِّبين أن المنافقين ليس عندهم إخلاص المتقين، ولا لديهم صراحة الكافرين، بل مذبذبون مترددون متحيِّرون. قال صاحب الكشاف:

٧٣- «**افتتح - سبحانه - كتابه بذكر الذين أخلصوا دينهم الله، وواطأت قلوبهم ألسنتهم، ووافق سرهم علنهم، وفعلهم قولهم، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً، قلوباً وألسنة، ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وأبطنوا خلاف ما أظهروا**».

وفي هذه الجملة الكريمة ﴿**وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾ ردٌّ لما ادَّعوه من الإِيمان، ونفي له على أبلغ وجه، إذ جاء النفي مؤكداً بالباء.

ثم إن الجملة نفت عنهم الإِيمان على سبيل الإِطلاق، فهم ليسوا بمؤمنين لا بالله ولا باليوم الآخر، ولا بأي ركن من أركان الإِيمان. فإيمانهم إيمان مزيف ليس على الحقيقة كما قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٧٤- «**فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان الحقيقي، ما تواطأ عليه القلب واللسان**».

(٤)

نتاج الابتلاء إذا لحق بالمنافق إيذاء

لّما كان المنافق يمارس نفاقه بالادعاء الكاذب فإن علامات نفاقه تبدأ بالظهور عند ابتلائه لأول وهلة، فبمجرد شعوره بقرب ابتلائه فإنك تلاحظ استعداده للتنصل، إنه جبان لأنه متردد متشكك، فعندما يصيبه الهلع فلا يدري ماذا يفعل، لكنه لحماقته يبدأ بالتعبير عن شعوره بعبارات تشعرك بجزعه من المواجهة مع أنها لم تحصل بعد!

وتركيبة شخصية المنافق خليط من الآفات والأمراض، وكلّما عمَّرَت معه غيَّبت فيه سرعة البديهة، مع أنه يحاول دائماً استعمال ذكائه ليداري حاله. لكنَّ موقفاً واحداً تحت نظر رجل من أهل البصيرة عند ابتلائه كفيل لتحطيم خفاياه وخباياه.

فأهل البصيرة كلما كانوا على علم بالمنافق أياً كان، كانوا على مقدرة لاتخاذ حذرهم منه، وجعله تحت الرقابة، يحذرونه ويحذِّرون فساده، فهو شعلة نار، يُخشى أن تقع على شيء فتحول الأخضر واليابس إلى رماد.

ورمادية المنافق التي تختفي بين لونين الأبيض والأسود تنعشه، ولكن سرعان ما تتحول إلى اللون الأصفر بعد انكشاف أمره، أصفر يعكس مرارة ما في داخله من الخبث، لذلك فإنه يخشى المواجهة، فعلامات خبثه بعد انكشاف امره تظهر في صفحة وجهه وتصرفات حركاته وفلتات لسانه.

والمنافق للظلامية التي هو فيها يعذِّب نفسه، بينما الكافر أراح نفسه

بصراحته، الكافر جسور، والمنافق جبان ينسلُّ ويهرب عند ابتلائه لأول وهلة، لذلك لا بد أن يُتخذ الحذر منه بما يناسب الذي في باطنه من الظلامية والخباثة والخيانة.

فيوضع المنافق تحت المجهر لملاحقته بالرقابة والملاحظة، وكلَّما كان المؤمن على علم بعلاماته كلما كان أسرع نباهة بمعرفته وتنبيهاً للآخرين. وقد أشار الله تعالى إلى أول علامة في المنافق عند ابتلائه فقال في سورة «العنكبوت»:

٧٥- ﴿.. **فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ..(١٠)**﴾

فدعوى المنافق بالإيمان ذهبت - كما ترى - في مهب الريح عند أول فتنة اعترضته، ﴿**فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ**﴾ أي: جاءته فتنة ومحنة في الدنيا، ﴿**جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ**﴾ قال ابن عباس:

٧٦- «**يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله**».

وعن مجاهد قال:

٧٧- «**أناس يؤمنون بألسنتهم فاذا أصابهم بلاء من الناس أو مصيبة في أنفسهم أو أموالهم فتنوا فجعلوا ذلك في الدنيا كعذاب الله في الآخرة**».[1]

وكذا قال غيره من علماء السلف، وهذه الآية نظيرها قوله تعالى في سورة «الحج»:

٧٨- ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)**﴾

بيان لحال هذا البعض من الناس عندما تنزل الابتلاءات ينقلبون. فهذا البعض يقف على مسافة من الوسط بعيداً ﴿**عَلَى حَرْفٍ**﴾ أي: على طرف من الدين، لأنه يخشى العاقبة، فهو قلق مضطرب، ليس مطمئناً ولا

(١) أخرجه الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

ساكناً، فإن أحس بظفر وغنيمة حضر وقرَّ واطمأن، وإلاَّ فرَّ وطار.
أو بمعنى آخر إن أصابه بلاء ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ وهكذا حصل لهؤلاء المنافقين الذين دخلوا في الدعوة السلفية في فلسطين والقدس ظاهراً وهم في حقيقتهم من داخلهم كارهون لها في نفس الأمر.

لا بدَّ من ابتلاء من ادَّعى الإيمان صدقاً أو كذباً

في مطلع سورة «العنكبوت» ذكر الله تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادَّعى الإيمان، ليظهر الصادق من الكاذب، فقال:

٧٩- ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)﴾

وبالتالي فإن الله تعالى بيَّن في السورة أن من الناس لا صبر لهم على الابتلاء، ولا ثبات لهم على المحن، وأنه بمجرد حصول محنة جزع واعتقد أن هذا من نقمة الله تعالى به، فيرتدَّ عن الإسلام!! وعن منهاج النبوَّة والسلف!!

﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ أي: إذا أصابه بلاء من الله، أو مسّه أذىً من الكفار؛ أو المبتدعة، أو المنافقين، باعتداء عليه بالضرب أو التعيير، أو أخذ ماله، أو أحداً هدَّدَه، أو شعر أن أحداً ما يترصَّده لأجل دينه وتدينه، أو من أجل تركه الدين الباطل، ودخوله في الدين الحق، ركض باتجاه نجاته، ورجع إلى الباطل، وجعل هذا الابتلاء مبرراً له للرجوع عن الإيمان والثبات على الحق.

فقوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: أن المنافق جعل الأذى الذي أحدثه الناس له بسبب إيمانه صارفاً له عن الدين إلى الردَّة - والعياذ بالله - كما أن عذاب الله صارف رادع للمؤمن عن الكفر والمعاصي.

والمنافق يجعل أذى الناس ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: مساوياً لعذاب الله كما هو مقتضى التشبيه، إنه رفع مستوى أذى الناس له إلى مستوى عذاب الله! فيترتب على ذلك أن يتزلزل إيمانه، ويضعف يقينه، بل ربما رجع إلى الكفر بعد الإيمان.

أما المؤمن الذي يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر ويؤمن بالجنة ويؤمن بعذاب النار لا يجعل عذاب النار مساوياً لأذى الناس بتاتاً، أما المنافق فإنه لمّا جعل فتنة الناس كعذاب الله دلَّ على ضعف إيمانه وفساد تفكيره.

لذلك تجد المنافق يجعل الأذى عند وقوعه بسبب ادعائه الإيمان؛ عذاباً ليس بعده أكبر منه؛ إعمالاً للعاجل في دنياه، وأهمل عذاب الله في الآخرة ولم يكترث به لأنه لا يؤمن به أصلاً.

فر المنافق من عذاب الناس فكفر، ولم يؤمن ليفر إلى الله من عذاب الله.

وكان الأحق به أن يفعل فعل المؤمن الذي يؤمن بأن عذاب الله أعظم بكثير من أذى الناس. لأن عذاب الناس يزول وينقطع، أما عذاب الله فلا يزول ولا ينقطع.

فإن قيل: هذا يقتضي منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه - احْتِرازاً عن العذاب العاجل - يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله.

فالجواب: ليس كذلك لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذِّب عليه ظاهراً وباطناً، أما المؤمن فإنه أظهر كلمة الكفر وبقي باطنه مطمئناً بالإيمان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -:

٨٠- «**وَمَنْ احْتَمَلَ الْهَوَانَ وَالْأَذَى فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَلَى الْكَرَامَةِ وَالْعِزِّ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَمَا فَعَلَ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَغَيْرُهُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ**

لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، وَكَانَ مَا حَصَلَ لَهُ مِنْ الْأَذَى قَدْ انْقَلَبَ نَعِيمًا وَسُرُورًا، كَمَا أَنَّ مَا يَحْصُلُ لِأَرْبَابِ الذُّنُوبِ مِنْ التَّنَعُّمِ بِالذُّنُوبِ يَنْقَلِبُ حُزْنًا وَثُبُورًا. فَيُوسُفُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَافَ اللَّهَ مِنْ الذُّنُوبِ، وَلَمْ يَخَفْ مِنْ أَذَى الْخَلْقِ وَحَبْسِهِمْ إذْ أَطَاعَ اللَّهَ، بَلْ آثَرَ الْحَبْسَ وَالْأَذَى مَعَ الطَّاعَةِ؛ عَلَى الْكَرَامَةِ وَالْعِزِّ وَقَضَاءِ الشَّهَوَاتِ وَنَيْلِ الرِّيَاسَةِ وَالْمَالِ مَعَ الْمَعْصِيَةِ، فَإِنَّهُ لَوْ وَافَقَ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ نَالَ الشَّهْوَةَ وَأَكْرَمَتْهُ الْمَرْأَةُ بِالْمَالِ وَالرِّيَاسَةِ وَزَوْجُهَا فِي طَاعَتِهَا، فَاخْتَارَ يُوسُفُ الذُّلَّ وَالْحَبْسَ وَتَرْكَ الشَّهْوَةِ وَالْخُرُوجَ عَنْ الْمَالِ وَالرِّيَاسَةِ مَعَ الطَّاعَةِ؛ عَلَى الْعِزِّ وَالرِّيَاسَةِ وَالْمَالِ وَقَضَاءِ الشَّهْوَةِ مَعَ الْمَعْصِيَةِ.

بَلْ قَدَّمَ الْخَوْفَ مِنْ الْخَالِقِ عَلَى الْخَوْفِ مِنْ الْمَخْلُوقِ وَإِنْ آذَاهُ بِالْحَبْسِ وَالْكَذِبِ فَإِنَّهَا كَذَبَتْ عَلَيْهِ؛ فَزَعَمَتْ أَنَّهُ رَاوَدَهَا ثُمَّ حَبَسَتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ». (١)

ثم أتبع سبحانه في سورة «العنكبوت» بما به يتأسى الموفق من صبر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وطول مكايدتهم من قومهم، فذكر نوحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً -عليهم الصلاة والسلام -.

وفي الأذى في الله تكلَّم النبي ﷺ عن نفسه فقال:

٨١- **«ما أوذي أحد ما أوذيت في الله عز وجل».** (٢)

وتكلَّم عن موسى - عليه السلام - فقال:

٨٢- **«رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر».** (٣)

---

(١) "مجموع الفتاوى"(١٣٢/١٥).

(٢) أخرجه الديلمي، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٢٢٢٢).

(٣) متفق عليه، وأخرجه الإمام أحمد.

(٥)

المنافقون انتهازيون

بعد أن ادّعى المنافق أنه مؤمن، بيَّن الله تعالى لنا نتاج ابتلائه: فلم يصبر ولم يحتمل الهوان والأذى في طاعة الله، وفي هذه الحلقة يكشف الله لنا موقفاً آخر من المواقف المشينة للمنافقين وهي في قوله:

٨٣- ﴿. . وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ. . (١٠)﴾[1]

أراد هذا البعض من الناس أن يقفوا كما ذكرت - سابقاً - على مسافة من الوسط ويرقبوا نتائج الصراع بين الحق والباطل.

وأهل النفاق انتهازيون وأهل أهواء، لذا قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ﴾ يعني إن ﴿جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ وفيه إشارة إلى حصول خير ما للمؤمنين، وقد عرفوا أنه من رعاية الله وشفقته ورحمته بهم، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أولئك المنافقون بكل ثقة وتأكيد: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، إخوانكم في الله، متابعين لكم في دينكم، ثابتين عليه بثباتكم، وإنما أكرهنا حتى قلنا ما قلنا (فلا تؤاخذونا)، فعدّوا أنفسهم من جملة المؤمنين لأخذ نصيبهم من الغنائم! ونظيره قوله تعالى في سورة «النساء».

٨٤- ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)﴾

(١) سورة «العنكبوت».

فالمنافق إذا سمع أن المسلمين أصابهم فضل من الله تعالى، أي: نصر وظفر وغنيمة، - كأنه ليس من أهل دينكم في المودة - فيتمنى أن يكون معكم ليفوز ولو بسهم من الغنيمة.

لأنه في الحقيقة لم يتهيأ لفوز المؤمنين، ويستبعد حصول الخير لهم لشدَّة حقده عليهم، بل إنه يتوقع ويتمنى للمؤمنين دائماً الهزيمة والخسارة والسوء كما قال تعالى:

٨٥- ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ . . (١٢٠)﴾[١]

وقوله تعالى:

٨٦- ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ . . (٥٠)﴾[٢]

وذلك لشدَّة عدائه الباطن للحق وأهله، ونظيره قوله تعالى في سورة «النساء»:

٨٧- ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢)﴾

وهذا البعض ممن يدَّعي الإيمان كانوا يقعُدون عن الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، بل ويقعِدون غيرهم.

فإن أصاب المؤمنين مصيبة من قتل الأعداء لهم، أو جراح أصابتهم، استبشروا بالنجاة، وفرحوا لتخلُّفهم، وعدّوا عدم الحضور معهم نعمة!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

٨٨- «**أحبوا أن يكون لهم منها حظ فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم، أو شر دنيوي ينصرف عنهم إذ كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة، ولو كانوا كذلك لأحبوا إخوانهم وأحبوا ما وصل إليهم من فضله وتألموا بما**

(١) سورة "آل عمران".

(٢) سورة "التوبة".

يصيبهم من المصيبة، ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوؤه ما يسوء المؤمنين فليس منهم».[1]

ونظيره قوله تعالى:

٨٩- ﴿. . **وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا** . . (١٢٠)﴾[2]

وقوله تعالى:

٩٠- ﴿. . **وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ** (٥٠)﴾[3]

وقوله تعالى:

٩١- ﴿**الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ** . . (١٤١)﴾[4] .

فالمنافقون دائماً حذرون، ويرقبون الحوادث عن كثب، ويلاحظون ما يجري بدقَّة، صفة بارزة فيهم، لا يستطيعون إخفاءها، إنهم يترقبون ما يحدث للمؤمنين من خير أو شر، هذا هو الهم الأكبر لديهم، المنافق لعدائه الشديد لأهل الإيمان يترقب الحدث وهو يتمنى حدوث الشر للمؤمنين، بل ويتمنى زوال الحق وأهله عن وجه الأرض! قال ابن كثير -رحمه الله-:

٩٢- «**يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفر عليهم، وذهاب ملتهم**».

قال تعالى: ﴿**فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ**﴾ أي: إن كان لكم نصر وتأييد وظَفَر وغنيمة سارعوا إلى الظهور في المقدِّمة ويتودّدون

---

(١) "أمراض القلوب"(ص:٢٣)

(٢) سورة "آل عمران".

(٣) سورة "التوبة".

(٤) سورة "النساء".

للمؤمنين للحصول على مغنم. ويكون المنافق في تربُّصه للأحداث أراد أمرين:

الأول: مراقبة الحدث وكلُّه أمنيات في وقوع المصائب على المؤمنين.

والثاني: ليستفيد من طرفي الصراع فإن فاز المؤمنون سعى لأخذ نصيبه! وإن هزموا أدلى بشهادته للطرف الثاني وأثنى عليه!

قال تعالى:

٩٣- ﴿**فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)**﴾[1].

(١) سورة "المائدة".

(٦)

عند الامتحان: المؤمن يُكرَم والمنافق يُهان

أراد المنافقون الانتهازيون بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ استغفال المؤمنين، فردَّ الله تعالى عليهم دعواهم الإيمان في الآية ذاتها فقال في «سورة العنكبوت»:

٩٤- ﴿. . أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾

والاستفهام لإنكار ما زعموه، ولبيان علم الله تعالى وقدرته في كشف الحقائق، فالله تعالى عالم بما في صدور العالمين من خير وشر، وإيمان ونفاق وكفر. فهو مطلع على سرائر البشرية جميعاً ولا يخفى عليه شيء من أمورهم.

فمهما أظهر المنافقون للمؤمنين من الموافقة فإن الله تعالى أعلم بما في صدورهم، بل هو أعلم بما في صدور العالمين جميعاً.

وفي الآية فضيحة للمنافق لأنه غيَّب علم الله تعالى بما ظن أنه يستطيع بنفاقه أن يخفيه، وغيَّب قدرة الله تعالى على كشفه، وغيَّب رقابة الله تعالى حين أجرى في صدره الكذب والخيانة ومن ثم ثبَّت في قلبه الخبث ليمارسه بكل حقارة.

والمؤمن في هذا الاختبار وفي هذه التجربة قد عرف كمال علم ربِّه سبحانه، وسعة حكمته. لذلك فإنه كلّما ازداد علماً بكتاب الله تعالى وسنَّة نبيه ﷺ كلما كان على بصيرة بالنفاق والمنافق، لأن العلم بهما أراده الله تعالى لعبده المؤمن ليكون على حذر منهما، فلا يجوز إهمال هذا العلم بتاتاً.

وسوف يطلعنا الله تعالى على مزيد من معالم النفاق وعلامات المنافق ليبيِّن لنا كمال علمه بطوائف الناس، وقدرته على معرفة ما يجري في صدورهم من تفاعلات الابتلاء قبل أن يستقر في قلوبهم من خير أو شر.

وفي القرآن من ذكر المنافقين في عامة السور المدنية: كالبقرة والنساء والتوبة وغيرها ما لا يمكن استقصاؤه. فمن كمال علمه وحكمته سبحانه أنه جعل طوائف الناس ثلاثاً لا رابع لها: المؤمن، والمنافق، والكافر، ثم أخبرنا أنه سبحانه يجري اختباره وفتنته وابتلاءه ليميز الخبيث من الطيب، لذلك قال في الآية التالية:

٩٥- ﴿**وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)**﴾

فأكَّد سبحانه علمه: بلام القسم وبنون التوكيد ﴿**وَلَيَعْلَمَنَّ**﴾ وأنه سبحانه قادر على التمييز، فلا يجوز للمنافق أن يستمر بغبائه وحقارته، كما لا يجوز للمؤمن الضعيف أن يستبعد قدرة الله تعالى على كشف حقيقة المنافق، بل عليه أن يكون على يقين أن الله تعالى على علم بنفاق المنافق، وأنه سبحانه قادر على أن يكشفه ويميِّزه ويخزيه ويخرجه من صفوف المؤمنين.

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٩٦- «**فلذلك قَدَّرَ مِحَنًا وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرده، لأنهم قد يحتجون على اللّه، أنهم لو ابتُلُوا لَثَبَتُوا**».

فمن قال: آمنت بالله، فإنه يُمتحن، فإن صبر وثبت على إيمانه وتحمّل الأذى في سبيل الله عزّ وجلّ، فهذا دليلٌ على صِدْق إيمانه وانحيازه إلى جماعة المؤمنين. وإلاَّ يكون سقط في الفتنة وانحاز إلى الكاذبين، كما قال تعالى في مطلع السورة:

٩٧- ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣)**﴾

فالحديث عن المنافقين في اواخر العهد المكي قبل الدخول في العهد المدني يشير

إلى أهمية العلم بإشكال يتعلق بكلمة ﴿آمَنَّا﴾ فكلما زادت شوكة الدعوة إلى الحق كلّما ارتفعت وتيرة ظهور النفاق، لأن المنافقين يريدون نقل مصالحهم باتجاه الطرف الذي يرونه أصبح هو الأقوى، وهذا في الحقيقة هو الذي دعاني للقول:

٩٨- «**وكلما ازدادت الدعوة السلفية شوكة، ازدادت حيلة المنافقين بالانتساب إليها زوراً وبهتاناً**».

فلا بدَّ من الحذر، لأن المنافق يسعى إلى دسِّ نفسه في صفوف المؤمنين لأنه يرى شوكة أهل الحق قد زادت قوة، وأن الله تعالى مكّن لها.

ومع هذا فإن الابتلاء والدخول في الفتن لن ينتهي حتى ولو ظهر الحق وأهله، لأن سنة الله تعالى في ابتلاء الناس مستمرة طالما هناك ادِّعاء، سواء كان الادّعاء صادقاً أو كاذباً، وذلك لأجل المحافظة على نصاعة جماعة المؤمنين فتبقى على البيضاء بعيداً عن الرمادية التي يسعى دائماً إليها المنافقون. لذلك جاء في سورة «البقرة» وهي مدنية قوله تعالى:

٩٩- ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا..(٢١٤)**﴾

وقال في سورة «آل عمران»:

١٠٠- ﴿**.. وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ..(١٥٤)**﴾

وقال:

١٠١- ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)**﴾.

وقال:

١٠٢- ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ..(١٧٩)**﴾.

وقال في سورة «محمد»:

١٠٣- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ(٣١)﴾

وقال في سورة «التوبة»:

١٠٤- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)﴾

قال ابن القيم -رحمه الله-:

١٠٥- «الناسَ إذَا أُرسِلَ إليهم الرُّسُلُ بين أمرين: إما أن يقولَ أحدهُم: آمنا، وإما ألا يقولَ ذلك، بل يستمرَّ على السيِّئاتِ والكُفر، فمَن قال: آمنا، امتحنه ربُّه، وابتلاه، وفتنه، والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبينَ الصادقُ من الكاذب، ومَن لم يقل: آمنا، فلا يَحْسَبْ أنه يُعْجزُ الله ويفوتُه ويَسبقُه، فإنه لا يَظُنَّ أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوتُ أهلُ الآلام في العُقُول، فأعقلُهم مَنْ باع ألماً مستمراً عظيماً، بألم منقطع يسير، وأشقاهُم مَنْ باع الألَمَ المنقطِعَ اليسير، بالألم العظيم المستمر».

وقال:

١٠٦- «وهذا يحصُل لكل أحد، فإن الإنسان مدنى بالطَّبع، لا بُد له أن يعيشَ مع الناس، والناسُ لهم إرادات وتصورات، فيطلبُون منه أن يُوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم، آذوْه وعذَّبوه، وإن وافقهم، حَصَلَ له الأذى والعذابُ، تارةً منهم، وتارةً مِن غيرهم، كمن عنده دِينٌ وتُقى حلَّ بين قوم فُجَّارٍ ظَلَمَةٍ، ولا يتمكنون مِن فجورهم وظُلمهم إلا بموافقته لهم، أو سكوتِه عنهم، فإن وافقهم، أو سكت عنْهم، سَلِمَ مِن شرهم في الابتداء، ثم يتسلَّطُونَ عليه بالإهانة والأذى أضعافَ ما كان يخافهُ ابتداء، لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سَلِمَ منهم، فلا بد أن يُهان ويُعاقَب على يد غيرهم».

وقال -رحمه الله-:

١٠٧- «ومَنْ تأمل أحوالَ العالَم، رأى هذا كثيراً فيمن يُعينُ الرؤساءَ على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يُعينُ أهلَ البِدَع على بِدعهم هَرَباً من عُقوبتهم، فمَنْ هداه الله، وألهمه رُشده، ووقاه شرَّ نفسه، امتنع مِن الموافقة على فِعل المحرَّم، وصَبَرَ على عُدوانهم، ثم تكونُ له العاقبةُ في الدنيا والآخرة، كما كانت لِلرُّسل وأتباعِهِم، كالمهاجرين، والأنصار، ومَن ابتُلي مِن العلماء، والعُبَّاد، وصالحي الوُلاة، والتجار، وغيرهم».

وقال:

١٠٨- «ولما كان الألم لا محيص منه البتة، عزى الله سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله:

١٠٩- ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)﴾[1] فضرب لمدة هذا الألم أجلاً، لابد أن يأتي، وهو يوم لقائه، فليلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمَّل من الألم من أجله، وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله وبالله، وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه، ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به».

وقال:

١١٠- «فالشوق يحمل المشتاق على الجد في السير إلى محبوبه، ويقرب عليه الطريق، ويطوي له البعيد، ويهون عليه الآلام والمشاق، وهو من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال، هما السبب الذي تنال به، والله سبحانه سميع لتلك الأقوال، عليم بتلك الأفعال، وهو عليم

(١) سورة "العنكبوت".

بمن يصلح لهذه النعمة، ويشكرها، ويعرف قدرها، ويحب المنعم عليه، فتصلح عنده هذه النعمة، ويصلح بها».

وقال:

١١١- «ثم أخبر عن حال الدَّاخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أُوذى في الله جعل فتنةَ الناسِ له كعذاب الله، وهى أذاهم له، ونيلُهم إياه بالمكروه والألم الذى لا بد أن يناله الرسلُ وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منهم، وتركِهِ السبب الذى ناله، كعذابِ الله الذى فرَّ منه المؤمنون بالإيمان، فالمؤمنون لكمال بصيرتهم، فرُّوا مِن ألم عَذاب الله إلى الإيمانِ، وتحمَّلُوا ما فيهِ من الألم الزائل المُفارق عن قريب، وهذا لضعف بصيرته، فرَّ من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففرَّ مِن ألم عذابهم إلى ألمِ عذابِ الله، فجعل ألمَ فتنة الناس في الفِرار منه، بمنزلة ألمَ عذاب الله، وغُبِنَ كُلَّ الغَبن إذ استجار مِن الرَّمضاء بالنار، وفرَّ مِن ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جُنده وأولياءه، قال: إني كنتُ معكم، والله عليم بما انطوى عليه صدرُه من النفاق».

وختم - رحمه الله - كلامه بقوله:

١١٢- «والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمتهُ أنه لا بد أن يمتحن النفوسَ ويبتَليها، فُيظْهِرَ بالامتحان طِّيبَها مِن خبيثها، ومَنْ يصلُح لموالاته وكراماته، ومَنْ لا يصلُح، وليُمحِّص النفوسَ التي تصلُح له ويُخلِّصها بكِير الامتحان، كالذَّهب الذى لا يخلُص ولا يصفو مِن غِشه، إلا بالامتحان، إذ النفسُ في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم مِن الخُبث ما يحتاجُ خروجه إلى السَّبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار، وإلا ففي كِير جهنم، فإذا هُذِّب العبدُ ونُقِّىَ، أُذِنَ له فى دخولِ الجنة». [1]

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣/١٤).

(٧)

حيلة المنافق الخدّاع؛ المراوغة والخداع

لم يكن النفاق قبل هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ولا بعدها، فلما كانت وقعة «بدر» وأظهر الله المؤمنين وأعزَّهم، ذلَّ من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفاً ومخادعة، ولتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين، أن جلا أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضا عن كثير من فجورهم.

فكان أول وصف وصفهم الله تعالى به في القرآن: «الادّعاء الكاذب»، ولمّا كان «الادّعاء الكاذب» يحتاج إلى حيلة لإخفائه لجأ المنافق إلى المراوغة والخداع. لأن أصل الخديعة الإخفاء، ومنه: مخدع البيت الذي يخفى فيه.

ويقال للسراب: الخيدع لأنه يغر من يراه.

والمراوغة من أساليب المنافقين، لذا يقال: روغان الثعلب، فالمنافق أروغ من ثعلب، فأسلوب المنافق في بعض أحيانه أسلوب ثعلبي، وقلت في بعض أحيانه لأنه يستعمل الروغان والمخادعة أحياناً لا دائماً، وإلاَّ انكشف أمره، فهو يخادع ويراوغ حسب الجوِّ المتاح، وحسب نباهة الذين من حوله، فإن كانوا من أهل الغفلة استمر بتلاعبه وخداعه وروغانه، وإلاَّ فإنه يحاول الاختفاء باستعمال طرق أخرى هي عند أهل البصيرة من علاماته.

قبل السّاعة سنون خدّاعة

وفي الحديث الذي أخرجه ابن ماجه، والحاكم، وأحمد، وغيرهم عن أبي هريرة مرفوعاً:

١١٣- «**سيأتي على الناس سنوات خدّاعات**». [١]

وفي رواية:

١١٤- «**قبل الساعة سنون خدّاعة**». [٢]

قال في «النهاية»:

١١٥- «**أي: تَكثُر فيها الأمطار ويقل الرَّيْع فذلك خدَاعُها، لأنها تُطْمِعُهم في الخِصْب بالمطر ثم تُخْلِف**».

وعن عوف بن مالك عنه ﷺ:

١١٦- «**إن بين يدي الساعة سنين خدَّاعة**». [٣]

لكن في هذه الأحاديث أيضاً إشارة إلى أن من أشراط الساعة ظهور النفاق والمنافقين بشكل ملفت للنظر، لأن المنافقين يستعملون الخداع وسيلة للتخفي، فالمخادعة هي الاحتيال والمراوغة بإظهار الخير مع إبطال خلافه لتحصيل المقصود من زهرة الدنيا أو أي شيء آخر. واستعمال المنافقين للمخادعة يتضمن استغفال من يريدون خداعه لإيقاعه فيما يكره، ولا شك أن تضليل الناس عن هدي النبوَّة والسَّلف يتضمن استعمال المنافقين وسائل تعينهم على خداع الآخرين. وهذه الوسائل سوف أظهرها بالبيان الواضح والدقيق عندما أتحدث عن المشيخة المنافقة المزيَّفة.

إن المنافق لمّا ادّعى كذباً الإسلام، سمي مخادعاً لله كما قال تعالى:

---

(١) وهو في "السلسلة الصحيحة" رقم (١٨٨٧).

(٢) أخرجه أحمد، وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة"(٥٠٩/٤).

(٣) أخرجها البزار، والطبراني في "المعجم الكبير"، وهي في "السلسلة الصحيحة" رقم (٢٢٥٣).

١١٧- ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا . . (٩)﴾[١]

لأنهم يَكذِبون بدَعْواهم الإيمانَ، وإظهارهم ذلك بألسنتهم، خِداعًا لله عز وجلّ وللمؤمنين.

وفعل «يخادع» يدل في الأصل على المشاركة، لأن عملية الخداع أحياناً تحتاج إلى أكثر من طرف، كما يدل فعل «يخادع» على المبالغة والاجتهاد، والمنافق يبالغ في المخادعة لأن الخداع والاحتيال من أقوى الوسائل لإخفاء كذبه.

وفي الحقيقة أن الخداع الذي يلجأ إليه المنافقون هو من بالغ حماقتهم لأنهم أولاً يخدعون أنفسهم كما قال تعالى:

١١٨- ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ . . (٩)﴾

فكان من نتائج خدعتهم لأنفسهم فضيحتهم في الدنيا قبل الآخرة، بل إنهم يذهبون إلى أبعد من خداع انفسهم لحماقتهم؛ إنهم يخادعون من لا يجوز عليه الخداع، فإن كانوا يخادعون الله فإن الله تعالى قابلهم على اعتقادهم بقوله:

١١٩- ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ . . (١٤٢)﴾[٢]

فنبَّه الله تعالى في الآية على خفَّة عقولهم في التطاول على مخادعة الله!

أما خداعهم للمؤمنين فمن مظاهره إظهارهم لهم أنهم إخوانهم في الدين وأنهم لا يريدون لهم إلا الخير. بينما هم في حقيقة أمرهم ثعالب يضمرون لهم العداوة ويتربصون بهم الدوائر.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ قال ابن جرير - رحمه الله-:

١٢٠- «**فتأويل ذلك: إنّ المنافقين يخادعون الله، بإحرازهم بنفاقهم دماءهم**

---

(١) سورة "البقرة".

(٢) سورة "النساء".

وأموالهم، والله خادعهم بما حكَم فيهم من منع دِمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان، مع علمه بباطن ضمائرهم واعتقادهم الكفرَ، استدراجًا منه لهم في الدنيا، حتى يلقوه في الآخرة، فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نارَ جهنم».

وأخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن من أراد خديعته - بمعنى أنه من أراد أن يظهر له خلاف ما يبطن - فإنه سبحانه كافيه أن يؤذيه أحد وقادر على حمايته من خداع الضلاّل فقال:

١٢١- **﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ. .(٦٢)﴾**[1]

وقوله تعالى في ختام الآية من سورة «البقرة»:

١٢٢- **﴿وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾**

يكشف لنا أن هؤلاء المخادعين مخدوعون وهم لا يشعرون. فلتظاهرهم بالإيمان غيَّبوا علم الله بهم وبالتالي فإنهم لّما انصرفوا إلى الادّعاء الكاذب وحاولوا خداع المؤمنين به نسوا أو تناسوا أن المؤمنين أولياء الله، فوقعوا في شر أفعالهم، فكأن خدعتهم التي نصبوها رجعت عليهم ففضحهم الله وكشف ألاعيبهم الفاسدة فها هم في خزي وعار.

احتيال المنافقين شرٌّ من احتيال العصاة

والاحتيال نوع لئيم من أنواع الخداع، قال ابن القيم -رحمه الله-:

١٢٣- «**واحتج ابن عباس وبعده أيوب السختياني وغيره من السلف: بأن الحيل مخادعة لله تعالى**».[2]

والاحتيال يفعله المنافقون على سبيل الاستحلال غير معترفين بحرمته.

---

(١) سورة «الأنفال».

(٢) "إغاثة اللهفان" (٣٧٦/١).

بينما العصاة إن فعلوه فإنهم يفعلوه من غير استحلال، يعني أنهم حين يأتونه يفعلونه وهم معترفون بحرمته، كما قال ابن القيم -رحمه الله-:

١٢٤- «**إن أكلة الربا وأموال الناس بالباطل لم يعاقبوا بالمسخ كما عوقب به مستحلوا الحرام بالحيلة وإن كانوا عوقبوا بجنس آخر كعقوبات أمثالهم من العصاة، فيشبه والله أعلم أن هؤلاء لما كانوا أعظم جرماً إذ هم بمنزلة المنافقين ولا يعترفون بالذنب بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم كانت عقوبتهم أغلظ من عقوبة غيرهم.**

فإن من أكل الربا والصيد الحرام عالماً بأنه حرام فقد اقترن بمعصيته اعترافه بالتحريم وهو إيمان بالله تعالى وآياته ويترتب على ذلك من خشية الله تعالى ورجاء مغفرته وإمكان التوبة ما قد يفضي به إلى خير ورحمة.

ومن أكله مستحلاً له بنوع احتيال تأول فيه فهو مصر على الحرام وقد اقترن به اعتقاده الفاسد في حل الحرام وذلك قد يفضي به إلى شر طويل».

وقال -رحمه الله-:

١٢٥- «**إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لما احتالوا على إباحة ما حرمه الله تعالى عليهم من الصيد بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد قال بعض الأئمة : ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده وتعظيم حرماته والوقوف عندها ليس المتحيل على إباحة محارمه وإسقاط فرائضه ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيبا لموسى عليه السلام وكفرا بالتوراة وإنما هو استحلال تأويل واحتيال ظاهره ظاهر الاتقاء وباطنه باطن الاعتداء ولهذا والله أعلم مسخوا قردة**».

(٨)

علَّة المنافق المخدوع؛ قلبه المريض الخَنوع

إذا مارس المنافق نفاقه يمارسه وهو في حماقة وغفلة، فهو إن فعل الخداع فهو في حماقة لأنه إنما يخدع أولاً نفسه وهو لا يشعر، كما قال تعالى في ختام الآية من سورة «البقرة»: ﴿**وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)**﴾ والشعور أخص من العلم، فالشعور: العلم بأمور دقيقة خفية علم حس؛ من الشعار، وهو ثوب يلي الجسد، ومشاعر الإنسان حواسه لأنها آلات الشعور. وهي نعمة افتقدها هؤلاء لأنهم لم ينتفعوا بها، فنفى عنهم الله الشعور مع سلامة مشاعرهم، فأصبحوا لا يشعرون أن خداعهم على أنفسهم، مع أنهم يباشرونه؛ لكن لا يحسون به، كما تقول: «مر بي فلان ولم أشعر».

إنهم فقدوا الشعور والإحساس فهم في غفلة عن خداع أنفسهم لأن الله تعالى أعمى بصائرهم. فالله تعالى يعاملهم بعقابه معاملة الخادع.

وعليه فإن المنافق هو بحدِّ ذاته مخدوع قرر لنفسه أبطل العقائد وظنَّها الحق، وعلَّة المخادعة التي ألجأت المنافق لمداراة ادعائه الكاذب وتظاهره بالإيمان؛ بيَّنها الله تعالى في مطلع الآية التالية بقوله:

١٢٦- ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ. . (١٠)**﴾

أي: في قلوبهم الشك، والشبهات، والنفاق، بإجماع المفسرين، إنه المرض الذي يجعل طعم الشيء خلاف ما هو عليه، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:

١٢٧- «**هذا مرض في الدين، وليس مرضًا في الأجساد**». [١]

وسمي النفاق مرضاً في القلب لكونه مانعاً من إدراك الفضائل. كما أن مرض الأبدان يمنعها من التصرف الكامل. وكما قال القرطبي:

١٢٨- «**عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائدهم**».

ومرض القلب في القرآن نوعان:

الأول: مرض بسبب الشهوات المردية فمال القلب بها إلى فعل المعاصي والفواحش والزنا. قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

١٢٩- «**ولهذا صنَّف الخرائطي كتاب «اعتلال القلوب» أي: مرضها، وأراد به مرضها بالشهوة**». [٢]

وقال –رحمه الله –:

١٣٠- «**فإن القلب الصحيح لو تعرَّضت له امرأة لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه، فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض**». [٣]

الثاني: مرض المنافقين وسببه الشبهات، ضرَّه ما استقر فيه من النفاق والشك والبدع. قال الطبري ـ رحمه الله ـ:

١٣١- «**والمرض الذي ذكر الله جل ثناؤه أنه في اعتقاد قلوبهم الذي وصفناه هو: شكهم في أمر محمد، وما جاء به من عند الله وتحيرهم فيه، فلا هم به موقنون إيقان إيمان، ولا هم له منكرون إنكار إشراك، ولكنهم كما وصفهم الله عز وجل مذبذبون بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء**».

فمرض المنافقين مرض شك وريب. ومرض العصاة مرض غي وشهوة،

---

(١) نقله ابن كثير في "تفسيره"(١/١٧٩).

(٢) "مجموع الفتاوى" (١٠/٨٠).

(٣) "المجموع"(١٠/٨٢).

وقد سمى الله سبحانه كلاً منهما مرضاً. وقال القرطبي -رحمه الله-:

١٣٢- «**والمعنى: قلوبهم مرضى لخلوها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد**».

والقلب قد يتألم بما يتألم به البدن أو تتألم به النفس، وكذلك النفس أو البدن فإنهما تتألمان بما يتألم به القلب، كالهمِّ، والحزن، والغيظ، وغير ذلك، لكن هذا الألم في كثير من الأحيان يزول بزوال أسبابه بالمداواة المادية أو المعنوية.

أما مرض الشبهات، أو مرض الشهوات، فإنهما لا يحدثان في القلب ألماً محسوساً، لأن سكرة الجهل والهوى تحول بين المرض والألم لفساد القلب، ولا يزول فساد القلب بالمداواة المادية والمعنوية كالأول، لأن صاحبه لا يشعر به، فإنه إن لم يتدارك علاج فساد قلبه بالإيمان والقرآن وبأضداد ما علق في قلبه من الشركيات، والمبتدعات، والنفاق، والشك، والذنوب، والشر، فلن يحصل له الشفاء. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

١٣٣- «**فكما أن الإنسان إذا صار لا يسمع بأذنه، ولا يبصر بعينه، ولا ينطق بلسانه، كان ذلك مرضاً مؤلماً له، يفوته من المصالح، ويحصل له من المضار، فكذلك إذا لم يسمع ولم يبصر ولم يعلم بقلبه الحق من الباطل، ولم يميز بين الخير والشر، والغي والرشاد، كان ذلك من أعظم أمراض قلبه وألمه**».[1]

ومن الأمراض التي يُلحقها الله تعالى بالقلوب المريضة بحيث تحدث فيها شرخاً أليماً وجسيماً لكن صاحبها لا يشعر بألمها:

الرين، والزيغ، والطبع، والختم، والإقفال، والتأبي، والنفور عن الاستقامة، والاشمئزاز، والصرف، والجهل، والضيق، والحرج، والإشراب، والرعب، والقساوة، والإبعاد، والإصرار على الباطل، والنجاسة، والعمى، والغفلة، والغمرة، واللهو، والحسد، والحقد، والحميَّة الجاهلية، والتعصب للضلال، والكراهية للصواب، والبغض

(١) "مجموع الفتاوى"(١٠/١١٧).

للحق وأهله، والامتناع عن الخير، والإنكار للمعروف، إلى غير ذلك، بالإضافة إلى ما ذكرناه من الشك والنفاق والارتياب.

فهذه القلوب بهذه الآفات تصير قلوباً ملعونةً لا خير فيها بتاتاً، لكن إذا قام هذا اللون من مرضى القلوب بمعالجة ما فيهم من الضلال، والانحراف، والنفاق، والشك، والبدع، والبغض للحق وأهله، عادت قلوبهم إلى الصحة شيئاً فشيئاً، وإلا فإنها إلى الموت واليبس والكفر.

أما المؤمن فقلبه على نقيض قلب الكافر، بله على نقيض قلب المريض، فقلب المؤمن سليم معافى من أمراض النفاق والشهوة، فهو خالٍ من البدعة والفاحشة، ومطمئن على الحق والسّنّة والعفَّة. فالقلب السليم هو:

١٣٤- «**الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له؛ كالعليم، والقدير، وأيضاً فإنه ضد المريض، والسقيم، والعليل**».[1]

وإليك ما قاله العلماء - رحمهم الله - في القلب السليم، قال ابن عباس:

١٣٥- «**القلب السليم يشهد أن لا إله إلا الله**».

وقال مجاهد والحسن وغيرهما:

١٣٦- «**سليم من الشرك**».

وقال سعيد بن المسيب:

١٣٧- «**القلب السليم هو: القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن**».

وقال أبو عثمان النيسابوري:

١٣٨- «**هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة**».

وقال ابن سيرين:

١٣٩- «**القلب السليم يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور**».

---

(١) "إغاثة اللهفان"(١/٤١).

وقال ابن القيم:

١٤٠- «**هو الذي سَلِم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادةً، ومحبةً، وتوكلاً، وإنابةً، وإخباتاً، وخشيةً، ورجاءً، وخلص عمله لله، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ﷺ فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال، من أقوال القلب وهي العقائد، وأقوال اللسان؛ وهي الخبر عما في القلب، وأعمال القلب؛ وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقِّه وجلِّه هو ما جاء به الرسول - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل**».[1]

وقال الشيخ السعدي:

١٤١- «**والقلب السليم، معناه، الذي سلم من الشرك، والشك، ومحبة الشر، والإصرار على البدعة، والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها، من الإخلاص، والعلم، واليقين، ومحبة الخير، وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله**».

وقد وصف الله تعالى القلب السليم في كتابه العزيز بعدة أوصاف، وصفه: بالمنيب، وباللين، وبالخوف، وبالثبات ورباطة الجأش، ووصفه بالطهارة، وبالرحمة، وبالاطمئنان، وبخلوِّه من الحقد والحسد، وبالتواضع والخشوع، ووصفه بالعامر إيماناً، وبالهادي.

إن قلوب المؤمنين بصفاتها السابقة قد جمعت بين الرغبة فيما عند الله،

---

(١) "اغاثة اللهفان" (١/٧-٨).

والرهبة مما عنده، ومن ثم فهي مقبلة على الله عامرة بحبه جل جلاله:

١٤٢- ﴿. . **أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى . . (٣)**﴾[١]

وهي مع ذلك ليست على درجة واحدة في هذا الإقبال والحب، مما يوجب على كل مسلم السعي للوصول بقلبه إلى أعلى درجات السلامة حتى تزكو أعماله وتستقيم حياته.

وجعل القرآن قلوب المنافقين مكاناً للمرض، للإشعار بأنه تمكن منها تمكناً شديداً، لما كانوا عليه من شدة الحسد وفرط العداوة، فلا غرابة أن تستقر الشكوك في قلوبهم وتتخذ منها وكراً بعد أن استقبلتها صدورهم بالحفاوة.

واعلم أن النفاق مرض خطير جدّاً، عرَّفه ابن القيم ـ رحمه الله ـ بقوله:

١٤٣- «**الداء العضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئاً منه وهو لا يشعر**».

وهذا الداء يخفى على الناس كما قال ابن القيم:

١٤٤- «**النفاق أمر خفي على الناس، وكثيراً ما يخفى على من تلبَّس به، فيزعم أنه مصلح وهو مفسد**».[٢]

وبيَّن الله تعالى هذا الخلل بقوله:

١٤٥- ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)**﴾[٣]

وصف الله تعالى المنافقين بمرض القلب لشدة التصاقهم به، وإذا نظرت في مواضع من القرآن فإنك ترى أن ذكر هذا المرض جاء مرادفاً لمن أصيبوا به في قلوبهم وهم المنافقون، يتضح لك في السور التالية: البقرة، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والمنافقون، والمدثر.

---

(١) سورة "الحجرات".

(٢) "مدارج السالكين"(١/٣٤٧).

(٣) سورة "البقرة".

(٩)
الترياق من سموم النفاق

فقوله تعالى في الآية العاشرة من سورة البقرة:

١٤٦- ﴿ . . . **فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** . . ﴾

دليل على أن هذا المرض العضال الباطن إذا لم تجر معالجته استفحل وقضى على صاحبه، فهو في زيادة مع مرور الزمان حتى يكون مع صاحبه في القبر وبعد البعث. واعتقاد المنافق المخدوع أنه يتوارى عن أنظار أهل البصيرة بتظاهره بالإيمان والخشوع، يبيِّن لك أن نفاقه بلغ ذروته إلى درجة أفقده فيها إحساسه بأنه مخدوع، وهو مع ذلك لا يزال مصرّاً على ممارسة الاحتيال والخداع!

فالمنافق كلّما زاده الله تعالى ابتلاءً كلما ظهرت حقيقته مع كلِّ ابتلاء، فإذا ابتلي بالمعصية الموجبة لعقوبته زاد ضلاله معها وزاد شكُّه ونفاقه، وإذا ابتلي بالحق وأهله ظهر بغضه للحق وأهله، وهكذا.

ومع مرور الزمن وتعدد الابتلاءات وتنوعها يفتضح أمره بقساوة قلبه فيستحق التنديد والتحذير كما قال تعالى:

١٤٧- ﴿ . . **فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢)**﴾[1]

ولقسوة قلب المنافق فإنه لا يحزن ولا يدمع، وإن بكى فإنما يبكي من رأسه

(١) سورة "الزمر".

لأنه يجيد التمثيل، فإياك أن تتعاطف معه، سئل شميط بن عجلان عن بكاء المنافق فقال:

١٤٨- «**يبكي من رأسه فأما من قلبه فلا**». [١]

فهذا المرض الذي أصاب قلبه لم يتح له أن يبصر نفسه، بل جرَّه إلى فساد أعظم، كما قال تعالى:

١٤٩- ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)**﴾[٢]

حتى أعماه الله تعالى في الدنيا عن قبيح ما هو فيه، ومن ثم مات على الباطل والكفر كما قال تعالى:

١٥٠- ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)**﴾[٣]

فقوله تعالى: ﴿**فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ**﴾ قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم:

١٥١- «**شرًا إلى شرهم، وضلالة إلى ضلالتهم**».

وقول عبد الرحمن نقله ابن كثير في «تفسيره وقال:

١٥٢- «**وهذا الذي قاله عبد الرحمن - رحمه الله - حسن، وهو الجزاء من جنس العمل، وكذلك قاله الأوَّلون، وهو نظير قوله تعالى أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾**».

فالذنوب - كما ترى - لها عواقب سيئة، فكما أن البدع والنفاق بريد للكفر، كذلك المعاصي والفجور بريد للكفر، والتوبة من الاعتقادات أعظم من التوبة من الإرادات، فيا أيها المؤمن اتخذ من النبي ﷺ أسوة وقد غفر

---

(١) "حلية الأولياء" (١٢٩/٣).

(٢) سورة "المطففين".

(٣) سورة «التوبة».

الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو القائل:

١٥٣- «**إنهُ لَيُغانُ على قَلْبِي وإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله في اليَوْم مِائَةَ مَرَّةٍ**». [(١)]

واستعماله - عليه السلام - «**لَيُغانُ**»، أولى مَن «لَيُران» فاستبدل الراء بالغين، لأن الران أغلظ الحجب على القلب فإنه كثيف مانع للقلب من رؤية الحق والانقياد له، واستعمال الغين في قوله «**لَيُغانُ**» لأنها ألطف وأرق الحجب، فمن سارع إلى معالجة نفسه مما أصابه من الذنوب تخلَّص من الوقوع في الأغلظ وهو الران الذي عرَّفه مجاهد بقوله:

١٥٤- «**هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب**».

وقد كنت في ١٩/ ٨/ ١٤٣٢ وفق ٢٠/ ٧/ ٢٠١١ كتبت مقالاً بعنوان:

١٥٥- «**بالختم يكون امتناع الفهم**».

قلت فيه:

١٥٦- «**واعلم أن عموم المبتدعة لا يفقهون، لأسباب - كنت ذكرتها هناك - وبسبب تعلقهم بـ (المثناة) التي أخبر بظهورها النبي ﷺ.**

ومعلومٍ أن «المثناة»: هي الكتب المذهبية والحزبية المفروضة على صغارهم من المقلدين والحزبيين، فحمْل الناس على هذه الكتب العفنة في زماننا هذا؛ وتعليمها لطلبة الشريعة في الجامعات!! من أكبر الضلال في المجتمعات الإسلامية، بل هي النفاق ودروب الباطل بعينه، يتوارثه المبتدعة المنافقون بعضهم عن بعض، وهي علامة من علامات اقتراب الساعة، وقد وقعت ونشاهد آثارها الحسيّة السيئة هذه الأيام.

وعاقبهم الله تعالى بأن جعل في آذانهم وقراً، أي: صمماً وثقلاً، لئلا يسمعوا الحق والسّنّة سماع قبول وانتفاع.

---

(١) أخرجه مسلم، وأحمد، والنسائي، وأبو داود.

والعلامة أخبر عنها النبي ﷺ بقوله:

١٥٧- «**يقبض العلم، ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرج**».[١]

ولا شيء أشفى لمرض القلب وإصلاحه مثل الإقبال على الله تعالى بصدق وإخلاص، ومعالجته بالقرآن، لأن الله تعالى قال:

١٥٨- ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. (٨٢)**﴾[٢]

وقال تعالى:

١٥٩- ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ. (٥٧)**﴾[٣]

فالقرآن شفاء لنوعي مرض القلب الشبهات والشهوات، فلا بدَّ من معالجة النفاق في أصله، ومعالجته من أسباب نشأته، فأسباب نشأته ظلمات بعضها فوق بعض، ظلمة الشهوة، ومنها: الهوى، والطمع، وحب الدنيا والرئاسة، وظلمة الشبهة، وظلمة الحسد، وظلمة الحقد، إلى غير ذلك من الظلمات التي إن لم يجر معالجتها سوَّدت القلب بالمزيد من الظلمات حتى يصعب معالجتها، لأن الظلمات في القلب إذا تراكمت جعلته مستعصياً لا يسمح لشدة مرضه باستقبال النافع، بل يرحب بكل ضارٍّ وفاجر. وأشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله:

١٦٠- «**إن العبد [وفي رواية: إن المؤمن] إذا أخطاء خطيئة [وفي رواية: أذنب] نكتت في قلبه نكته سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها [وفي رواية: فإن زاد زادت] حتى تعلو على قلبه [وفي رواية: حتى يغلَّف بها قلبه] وهو الران الذي ذكر الله تعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**».[٤]

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) سورة «الإسراء».

(٣) سورة «يونس».

(٤) أخرجه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والنسائي، والحاكم، وغيرهم عن أبي هريرة، وهو في "صحيح الجامع"(١٦٧٠).

وعن حذيفة – رضي الله عنه – مرفوعاً:

١٦١ – «**تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات و الأرض، و الآخر أسود مربداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً و لا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه**». (١)

فالقبائح تسوِّد القلب وتطفىء نوره، والإيمان هو نور فى القلب، والقبائح تذهب به أو تقلله قطعاً، فالحسنات تزيد نور القلب، والسيئات تطفيء نور القلب. قال ابن القيم –رحمه الله–:

١٦٢ – «**وللقلب امراض أخر من: الرياء، والكبر، والعجب، والحسد، والفخر، والخيلاء، وحب الرياسة، والعلو في الارض، وهذا مرض مركب من مرض الشبهة والشهوة فإنه لا بد فيه من تخيل فاسد وارادة باطلة، كالعجب، والفخر، والخيلاء، والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم فلا يخرج مرضه عن شهوة او شبهة او مركب منهماً**». (٢)

ومن الكبائر التي تنبت النفاق في القلب: الغناء، فقد صحَّ عن عبد الله بن مسعود قوله:

١٦٣ – «**الغناء ينبت النفاق في القلب**». (٣)

وصحَّ عن القاسم بن سلمان قوله:

١٦٤ – «**إن الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع، وإن الذكر ينبت**

---

(١) أخرجه مسلم، وأحمد.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/١١١).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في "ذم الملاهي" وقال شيخنا الالباني – رحمه الله – في "تحريم آلات الطرب" (ص:١٠) صحَّ عن عبد الله بن مسعود موقوفاً ولم يصح عنه مرفوعاً، وقال الألوسي: وله حكم المرفوع لأنه لا يقال من قبل الرأي.

الإيمان في القلب كما ينبت الماء الزرع» .[1]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- :

١٦٥- **«ولهذا تزندق بالسماع طوائف كثيرة»** .[2]

وقال ابن القيم -رحمه الله- :

١٦٦- **«فإن قيل: فما وجه إنباته للنفاق في القلب من بين سائر المعاصي؟ قيل: هذا من أدلِّ شيء على فقه الصحابة في أحوال القلوب وأعمالها ومعرفتهم بأدويتها وأدوائها، وأنهم هم أطباء القلوب دون المنحرفين عن طريقتهم الذين داووا أمراض القلوب بأعظم أدوائها فكانوا كالمداوي من السقم بالسم القاتل.**

وهكذا والله فعلوا بكثير من الأدوية التي ركبوها أو بأكثرها، فاتفق قلة الأطباء وكثرة المرضى وحدوث أمراض مزمنة لم تكن في السلف، والعدول عن الدواء النافع الذي ركبه الشارع، وميل المريض إلى ما يقوي مادة المرض، فاشتد البلاء وتفاقم الأمر وامتلأت الدور والطرقات والأسواق من المرضى، وقام كل جهول يطبب الناس» .

وقال :

١٦٧- **«فاعلم أن للغناء خواص لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق، ونباته فيه كنبات الزرع بالماء، فمن خواصه: أنه يلهي القلب ويصدُّه عن فهم القرآن، وتدبُّره، والعمل بما فيه، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبداً لما بينهما من التضاد، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى ويأمر بالعفة ومجانبة شهوات النفوس وأسباب الغي، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضد ذلك كله ويحسنه ويهيج النفوس إلى شهوات الغي فيثير كامنها**

(١) "قدر الصلاة" لابن نصر، وجوَّد إسناده شيخنا الألباني في "تحريم آلات الطرب"(ص:١٣).

(٢) "الاستقامة" (١/٣٩٢)

ويزعج قاطنها ويحركها إلى كل قبيح، ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح، فهو والخمر رضيعا لبان وفي تهييجهما على القبائح فرسا رهان».

إلى أن قال -رحمه الله-:

١٦٨- «**فالغناء يفسد القلب وإذا فسد القلب هاج في النفاق**».

وقال:

١٦٩- «**وبالجملة فإذا تأمل البصير حال أهل الغناء وحال أهل الذكر والقرآن، تبيَّن لهم حذق الصحابة ومعرفتهم بأدواء القلوب وأدويتها وبالله التوفيق**».[١]

وقال شيخ الإسلام الألباني - رحمه الله - في كتابه الماتع الذي صاغ فيه الحجَّة على من سَوغ له الشيطان سماع الغناء والمعازف المسمّى بـ «تحريم آلات الطرب» (ص: ١٥١):

١٧٠- «**وبعد أن تبيَّنَت الحكمة في تحريم الغناء من الآثار المتقدمة وهي أنه يلهي عن طاعة الله وذكره وهذا مشاهد، وحينئذ فالملتهون به إسماعا واستماعا لكل منهم نصيبه من الذم المذكور في الآية الكريمة:**

١٧١- ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّه . (٦)**﴾[٢]

وذلك بحسب الالتهاء قلة وكثرة وقد عرفت أن (الاشتراء) بمعنى الاستبدال والاختيار مع ملاحظة هامة وهي أن اللام في قوله تعالى: ﴿**لِيُضِلَّ**﴾ إنما هي لام العاقبة كما في تفسير الواحدي:

١٧٢- «**أي: ليصير أمره إلى الضلال**».

كما قال ابن الجوزي:

١٧٣- «**فليس هو للتعليل كما يقول بعضهم، وله وجه بالنسبة للكفار الذين يتخذون آيات الله هزوا**».

---

(١) "إغاثة اللهفان"(١/٢٤٨-٢٤٩).

(٢) سورة "لقمان".

ولهذا قال ابن القيم - رحمه الله - :

١٧٤- «**إذا عرف هذا فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن؛ وإن لم ينالوا جميعه، فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً، وإذا يتلى عليه القرآن ولى مستكبراً كأن لم يسمعه كأن في أذنيه وقراً، وهو الثقل والصمم، وإذا علم منه شيئاً استهزأ به، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفراً، وإن وقع بعضه للمغنين ومستمعيهم فلهم حصة ونصيب من هذا الذم.**

يوضحه: أنك لا تجد أحداً عنى بالغناء وسماع آلاته إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى علما وعملاً، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا إلى ذاك، وثقل عليه سماع القرآن وربما حمله الحال على أن يُسكت القاريء، ويستطيل قراءته، ويستزيد المغني، ويستقصر نوبته، وأقل ما في هذا: أن يناله نصيب وافر من هذا الذم إن لم يحظ به جميعه.

والكلام في هذا مع من في قلبه بعض حياة يحس بها، فأما من مات قلبه وعظمت فتنته فقد سدَّ على نفسه طريق النصيحة:

١٧٥- ﴿**. . . وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)**﴾[1]

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بمعالجة أنفسهم لئلا يصابوا بمرض النفاق الذي يؤدي إهمال معالجته في كثير من الأحوال إلى الكفر -والعياذ بالله-.

لذلك جعل الله تعالى في سورة الفاتحة دعاءً مهماً للعلاج هو بمثابة الترياق

(١) سورة "المائدة".

من سموم النفاق فأمرنا لرحمته بنا أن نسأله به قائلين:

١٧٦- **﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

١٧٧- **«نزه الله نبيه عن هذين - يعني: الضلال والهوى - فقال:**

١٧٨- **﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)﴾**[1]

فالضال الذي لا يعلم الحق بل يظن أنه على الحق وهو جاهل به، كما عليه النصارى قال تعالى:

١٧٩- **﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾**[2]

وهؤلاء القوم هم المنافقون أئمة الضلال الذين حذَّر الله منهم، وعن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة. فلا بدَّ للمؤمن اللبيب أن يحذر هؤلاء الذي ابتدعوا في الدين ما أنزل الله به من سلطان، وإذا كنت على علم بأمراض القلوب فاعلم أنها أسوأ حالاً من أمراض الأبدان، فإن من أسباب نشأة مرض النفاق الجهل، ودواؤها العلم، فلا بدَّ من سؤال أهل الذكر، لأن العلم بالنفاق مهم، فهو وقاية من الإصابة بأمراض النفاق وحصانة من الوقوع في براثن المنافقين، قال ابن القيم رحمه الله:

١٨٠- **«لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت، وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي».**

---

(١) سورة «النجم».

(٢) سورة «المائدة».

وقال –رحمه الله–:

١٨١ – «ولهذا السبب كانت نسبة العلماء الى القلوب، كنسبة الأطباء الى الأبدان، وما يقال للعلماء اطباء القلوب فهو لقدر ما جامع بينهما، والا فالأمر أعظم فان كثيراً من الأمم يستغنون عن الأطباء ولا يوجد الأطباء إلا في اليسير من البلاد، وقد يعيش الرجل عمره او برهة منه لا يحتاج الى طبيب، وأما العلماء بالله وأمره فهم حياة الموجود وروحه ولا يستغنى عنهم طرفة عين». [١]

وقال –رحمه الله–:

١٨٢ – «ولهذا يصف سبحانه أهل الجهل بالعمى والصم والبكم، وذلك صفة قلوبهم، حيث فقدت العلم النافع فبقيت على عماها وصممها وبكمها قال تعالى:

١٨٣ – ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)﴾[٢]

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية –رحمه الله–:

١٨٤ – «والغاوي الذي يتبع هواه وشهواته مع علمه بأن ذلك خلاف الحق كما عليه اليهود قال تعالى:

١٨٥ – ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آَيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾[٣]

وقال تعالى:

١٨٦ – ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

(١) "مفتاح دار السعادة"(١١١/١).
(٢) سورة "الإسراء".
(٣) سورة «الأعراف».

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ . . (١٧٦)﴾[1]

وفي الحديث عن النبي ﷺ:

١٨٧- «إن مما أخشى عليكم بعدي [شهوات الغي في] بطونكم وفروجكم، ومضلات الأهواء». [2]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

١٨٨- «فإن الغي والضلال يجمع جميع سيئات بني آدم فإن الإنسان كما قال تعالى:

١٨٩- ﴿. . وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾[3]

فبظلمه يكون غاوياً وبجهله يكون ضالاً وكثيراً ما يجمع بين الأمرين، فيكون ضالاً في شيء؛ غاوياً في شيء آخر، إذ هو ظلوم جهول ويعاقب على كل من الذنبين». [4]

(١) سورة «الأعراف».

(٢) أخرجه أحمد، وابن ابي عاصم في "السنة"، والطبراني في "الصغير"، عن أبي برزة الأسلمي، وهو في "صحيح الترغيب والترهيب" (٥٢ و ٢١٤٣).

(٣) سورة «الأحزاب».

(٤) «رسالة في التوبة»(ص: ٢٢٨ - ٢٢٩).

(١٠)
أقبح علامات المنافق: الكذب

ختم الله تعالى الآية العاشرة من سورة البقرة بقوله:

١٩٠- ﴿. . . وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾

فتوعَّدهم بمصير معلوم وهو: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كما قال تعالى:

١٩١- ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨)﴾[١]

والعذاب الأليم هو العذاب الموجع، وهو عذاب جهنم، كما قال تعالى:

١٩٢- ﴿. . إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾[٢]

وجعلهم الله تعالى في أسفل جهنم كما قال:

١٩٣- ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ. . (١٤٥)﴾[٣]

وبيَّن الله تعالى في الآية من سورة «البقرة» علَّة هذا العذاب فقال: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي: بسبب الكذب.

وفي قوله تعالى: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ قراءتان: بفتح أوَّله وتخفيف الذال، أو بضم الياء وتشديد الذال، فقراءة التخفيف تثبت لهم الكذب.

والكذب: الإخبار عن الشيء بخلاف الواقع. ولقد كان المنافقون كاذبين في قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهم في حقيقتهم غير مؤمنين. لذا فإن خليفة المسلمين أبا بكر الصدِّيق أطلق تحذيره من النفاق على أنه مجانب للإيمان فقال:

---

(١) سورة "النساء".
(٢) سورة "النساء".
(٣) سورة "النساء".

١٩٤- «**يا أيها الناس، إياكم والكذب، فإنه مجانب للإيمان**». [١]

وقراءة التشديد تفيد مبالغتهم في فعل الكذب. فهم يكذبون ويكذِّبون. والقراءتان لا تعارض بينهما ولا تناقض، فإن المنافقين متصفون بالكذب في الخبر عن الله ورسله وعن الناس، وبتكذيب رسل الله فيما أوحي إليهم من التشريع، وبالقراءتين يكون المنافقون قد جمعوا بين الكذب والتكذيب وهذا شر الأحوال.

وجاء تشهيرهم بأقبح علاماتهم بين الناس بعد أن فضح الله تعالى تظاهرهم بالإيمان، وممارستهم الخداع، وسفاهتهم بضرر أنفسهم، وحماقتهم بعدم التمييز بين ما فيه ضلالهم وما فيه هداهم، وخباثتهم في سجيَّتهم، وعنادهم لرفض معالجتهم للأمراض التي نبتت في قلوبهم.

وكون الكذب أخص صفات المنافقين، وأبرز جرائمهم، عبَّر الله تعالى عنه بقوله: ﴿**يَكْذِبُونَ**﴾ فالكذب فعل يتجدَّد ويحدث فيهم، ويستمر معهم بلا انفكاك عنهم، لأنهم في ريبة وشك من دين الله الإسلام، وبالتالي فإن المنافقين مترددون لا يستقرون على قول. فإذا وقعت فتنة رأيت لهم قولين في مجرياتها، إن لم يكن لهم أقوال؛ وكلها متضاربة. قال الملوي:

١٩٥- «**ولا يخفى أنَّ كلَّ كفر ظهر، وكل ضلالة ظهرت، وكل بدعة، وكل شرٍّ، إنما كان سببه إفساد القوة العلمية والنطقية، وهو يكون بالتكذيب**». [٢]

وكنت كتبت مقالاً لي بعنوان:

١٩٦- «**وجاءت فتنة.. ! وهي أشدُّ وأغلظ**». [٣]

أشرت فيه إلى كيفية تصرف المؤمن حيال الفتنة فقلت:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب "الصمت وآداب اللسان"، وأحمد، والبيهقي، وغيرهم، بسند صحيح".

(٢) نقله البقاعي في "نظم الدرر".

(٣) العدد الرابع من مجلة الدعوة السلفية – الصادر في شهر رجب عام ١٤٢٧، قبل ظهور فتنة المنافقين الخوارج في فلسطين.

١٩٧- «من كان على بصيرة من دينه، عاملاً صالحاً، جنَّبه الله تعالى الفتن، ويدخل في هذا الباب أنه لو قدَّر الله تعالى له أن يكون في دائرة مكان وقوعها فإنه يتعامل معها تعامل العاقل المحظوظ؛ لأنه موفق للسعادة، فإذا ابتلي بشيء منها، أو بشيء من آثارها مما لا بد أن يقع لحكمة اقتضاها رب العزة، فعليه أن يصبر».

وقسَّمْت الناس - يومئذ - حيال العولمة العصرية إلى ثلاثة أقسام وقلت:

١٩٨- «لقد نادى الغرب (الكافر) قريباً بالعولمة، فالعصر عصر العولمة، وهو في شرعنا عصر الفتن، والبلابل، والقتل. وتحمَّس لهذا العصر وسارع كل من ضلَّ عن هدي النبوة والسلف، فكان الناس فيه إلى ثلاث فرق:

فرقة: أفسحت للعولمة ورحبت في ديارها له.

وفرقة: عادت العولمة على غير هدي محمد ﷺ فعالجت الأمر معالجة سيئة أساءت فيها إلى دين الله الإسلام.

وفرقة ناجية وهي «السعيدة» التي جنبت بفضل الله تعالى الفتن، فعلمت أن عصر العولمة الذي نادى به الغرب هو عصر الفتن، فالتزمت شرع الله في معالجة الأمور، وهي فرقة قليلة فقيرة غير مسموعة، لأن الكثرة في الفرقتين الأولتين، وأشدهما على الإسلام الثانية لأن فيها المبتدعة أصحاب الأهواء على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم الذين قدَّموا أقوالهم على قول الله تعالى وقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، واغترَّ بأقوالهم وأفعالهم وفهومهم كثير من العامة».

وقلت:

١٩٩- «واستمرت الفرقة الثانية بنضالها وكفاحها الفاجر، تزيِّن للمسلمين قدرتها على تصحيح مسار المسلمين، حتى أوقعتهم لخباثتها في وحل الفوضى، والبلابل، والقتل، وجاءت بالفتن من أوسع أبوابها، لأنها استطاعت أن تتقمص في النهاية قميص السلفية، وتلبس لَبوسها، فأتاح لها هذا الأسلوب الخبيث، وهو التلون والنفاق، أن تكذب في حديثها، وتخلف في وعدها، وتخون في أمانتها، وتغدر في عهدها، وتفجر في خصامها، وتزعم أنها على الإسلام».

فعلى المسلمين – اليوم – في أنحاء الأرض أن يعلموا أن المنافقين في عصر العولمة – بعد أن هتك الله سترهم وكشفهم – لعبوا أدواراً رئيسة في إضعاف الأمة، وإفسادها، وسلخ حاضرها عن ماضيها.

إن ممارسة المنافقين للكذب والتكذيب سار باتجاه لئيم، فبعد استعمال الدجاجلة للمال والدين على غفلة من الفرقة الأولى، صارت العولمة هي غاية المنافقين، ففي الوقت الذي كانت الفرقة الأولى ترحب بالعولمة الكافرة في ديار المسلمين، كانت الفرقة الثانية تهيء المسلمين لعولمة صنَّعوها في الداخل، وحجَّتهم فيها تغيير أنظمة الاستبداد بأسْلَمت السياسة، فأرادوا أن يكونوا:

بوجه عولمةٍ صنَّعها الكفّار وسمّاها: «الإسلام السياسي».

وبوجه عولمةِ المسلمين صنَّعها المنافقون أنفسهم وسمَّوها: «التغيير والعدالة»، و«الإصلاح والعدالة»، و«التنمية والعدالة»، و «الحرية والعدالة»، ونحو ذلك.

فمدار هذه التسميات ـ كما ترى ـ على الثورة لأجل التغيير، والإصلاح، والتنمية، والحرية، – زعموا – واقترنت جميعها بدعوى العدالة التي نادى بها ذو الخويصرة نفسه.

لذلك فإن الثورات التي أحدثها الخوارج في العالم العربي والإسلامي ثورات فاجرة، لأن أهل الأهواء والبدع المنافقين؛ أرادوها كذلك لمّا خالفوا شرع الله تعالى في معالجة الواقع، وخالفوا هدي محمد ﷺ في معالجة الواقع، وهم يعلمون ان معالجة الواقع لا تكون إلاَّ بالرجوع الصادق للكتاب والسّنّة على منهاج النبوَّة والسلف، فكذبوا على المسلمين بشعاراتهم، وأوهموهم أن العلاج والتغيير، والإصلاح، إنما يكون لأجل العدالة التي زعموها، فإذا هي ثورات أكلت الأخضر واليابس، ولم تحقق إلاَّ مزيداً من البؤس والضعف.

لماذا؟ لأنها ركّبت على الكذب وأصحابها سواء كانوا في الساحة ظاهرين أو من وراء الكواليس مختبئين فهم فجرة مستمرون بكذبهم ونفاقهم. فالكذب كما

قال النبي ﷺ:

٢٠٠- «**يهدي إلى الفجور**». [١]

وقال الحسن البصري:

٢٠١- «**الكذب جماع النفاق**». [٢]

وقال:

٢٠٢- «**وأصل النفاق، والذي بني عليه النفاق: الكذب**». [٣]

لذلك:

٢٠٣- «**ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب**». [٤]

ولمَ لا! والكذب ليس من خلق الكرام، وكان قبيحاً في الجاهلية كما هو قبيح في الإسلام، قال العيني -رحمه الله-:

٢٠٤- «**العقل يحكم بقبح الكذب، وهو خلاف مقتضى العقل، ولم تنقل إباحة الكذب في ملَّة من الملل**». [٥]

وقد كشفت دراسة علمية حديثة أجراها فريق من الباحثين الكنديين بجامعة «كولومبيا البريطانية» النقاب عن العلامات الدّالة على الشخص الكاذب. وقال الباحثون:

٢٠٥- «**إن الشخص الكاذب تفضحه بعض الحركات البسيطة التي لا يلقي لها بالاً ولكن يستطيع من يواجهه ملاحظتها من ملامح وجهه خاصة عند رفعه إحدى حاجبيه وظهور ابتسامة صفراء تنم عن الكذب والخداع . . وأكَّد علماء النفس أن الانسان يستطيع التحكم في عضلات الوجه السفلية التي غالباً ما تستخدم في**

---

(١) متفق عليه، وأخرجه غيرهما.

(٢) أخرجه أحمد في "الزهد" (ص:٢٧٨).

(٣) أخرجه ابن ابي الدنيا في "الصمت وآداب اللسان"(ص:٢٤٠).

(٤) أخرجه ابن سعد في "الطبقات"، وابن أبي الدنيا في "مكارم الأخلاق"، وأحمد، عن عائشة - رضي الله عنها - وهو في "السلسلة الصحيحة"(٢٠٥٢).

(٥) "عمدة القاريء" (٨٥/١).

الكلام وتناول الطعام، بينما يصعب عليه التحكم في عضلات الوجه العلوية التي غالباً ما تثير الشكوك والريبة في حالة الكذب والغش».

فالكذب لا يليق بالمؤمنين، إنما يليق بمن لا يؤمن بالله تعالى، كما قال تعالى في سورة «النحل»:

٢٠٦- ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٠٥)**﴾

وأصل الافتراء: الاختراع، وأطلقه الله تعالى هنا فقرنه بالكذب، فأرجع الكذب إلى أصله وهو الاختراع، كما قال:

٢٠٧- ﴿**. . وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ. . (١٠٣)**﴾[1]

وأنت تعلم أن الله تعالى نفى عن المنافقين الإيمان نفياً قاطعاً على الإطلاق، وأكَّد على ذلك بدخول الباء في خبر «ما» عندما قال: ﴿**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ أي أنهم ليسوا بداخلين في المؤمنين.

فالمؤمن أمين وحامل لأمانة فلا يمكنه الكذب، وخلافه من لا يبالي بالكذب لأنه لا يبالي بالمعصية، أو فيه ضرب من الاستخفاف بحق الله تعالى، فإن الله تعالى توعَّد هذا الصنف من الناس بعقاب يناسبهم كما قال النبي ﷺ:

٢٠٨- «**ثلاثة لا يكلمهم الله عز وجل [وفي رواية: لا ينظر الله إليهم] [وفي رواية: لا يدخلون الجنة]**».

وذكر فيهم:

٢٠٩- «**الإمام الكذّاب [وفي رواية: الملك الكذّاب]**».[2]

قال المناوي -رحمه الله-:

٢١٠- «**لأن الكذب يكون غالباً لجلب نفع أو دفع ضر، والملك لا يخاف أحداً فيصانعه، فهو منه قبيح لفقد الضرورة**».

---

(١) سورة "المائدة".

(٢) أخرجه مسلم، والنسائي، وابن حبان، وأبو يعلى، والبزار، وغيرهم، والحديث في "السلسلة الصحيحة"(٣٤٦١).

قال عامر الشعبي -رحمه الله-:

٢١١- «**من كذب فهو منافق**». [١]

وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح:

٢١٢- «**علامة [وفي رواية: آية] المنافق [وفي رواية: من علامات المنافق] ثلاث: إذا حدَّث كذب**». [٢]

وفي رواية:

٢١٣- «**في المنافق ثلاث خصال، إذا حدَّث كذب**». [٣]

وفي رواية:

٢١٤- «**ثلاث من كنَّ فيه فهو منافق، إذا حدَّث كذب**». [٤]

وفي رواية:

٢١٥- «**ثلاث في المنافق وإن صلى وإن صام، وزعم انه مسلم، إذا حدَّث كذب**». [٥]

وفي رواية:

٢١٦- «**أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً . . إذا حدَّث كذب**». [٦]

فعدَّ الكذب على رأس خصال المنافق وقَّدمه على خصال أخرى فيه؛ لأنه أقبحها. فالكذب قبيح وإن كان فاعله مازحاً، وقد رهَّب النبي ﷺ من هذا اللون من الكذب فقال:

٢١٧- «**ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له ويل له**». [٧]

وبوَّب الإمام البخاري في «الأدب المفرد» باباً سمّاه:

---

(١) أخرجه الفريابي في "صفة النفاق وذمِّ المنافقين" (رقم٢٠).

(٢) متفق عليه، وأخرجه الفريابي، وغيرهم.

(٣) أخرجه البزار، وهو في "صحيح الجامع" (٤٢٥٥).

(٤) أخرجه مسلم، وغيره.

(٥) أخرجه مسلم، وأحمد.

(٦) متفق عليه، وأخرجه غيرهما.

(٧) رواه أبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والبيهقي، وهو في "صحيح الترغيب والترهيب"(٢٩٤٤).

٢١٨- «**باب لا يصلح الكذب**».

ذكر فيه قول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - :

٢١٩- «**لا يصلح الكذب في جِدٍّ ولا هزل**». [١]

وكما أن الكذب أساس النفاق وبابه، فإن الصدق أساس الإيمان وبابه، ومن عرف بالكذب اتهم في الصدق، بل لا يمكن اجتماع الكذب والصدق جميعاً في قلب امريء، كما قال النبي ﷺ:

٢٢٠- «**لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امريء، ولا يجتمع الكذب والصدق جميعاً، ولا تجتمع الخيانة والأمانة جميعاً**». [٢]

وقد وصف الله تعالى المنافقين بالكذب كقوله تعالى:

٢٢١- ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)**﴾ [٣]

بينما وصف المؤمنين بالصدق فقال:

٢٢٢- ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)**﴾ [٤]

٢٢٣- «**والصحابة الذين كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن القرآن حق، هم أفضل من جاء بالصدق وصدق به بعد الأنبياء**». [٥]

---

(١) "صحيح الأدب المفرد" (٣٨٧).

(٢) رواه ابن وهب في "الجامع"، وهو في "السلسلة الصحيحة" (١٠٥٠).

(٣) سورة "المنافقون".

(٤) سورة "الحجرات".

(٥) "دقائق التفسير" لابن تيمية (٢٠٨/٢).

(١١)

الفساد أخص مشروعات المنافقين الأوغاد

لمّا كان الكذب مشروع فساد وإفساد لدى المنافقين، أتبع الله تعالى الآية العاشرة من سورة البقرة بقوله:

٢٢٤- ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)**﴾

أما لماذا الكذب مشروع فساد وإفساد لديهم؟ فجوابه:

أن الكذّاب مفتر، ومعلوم أن أصل الافتراء: الاختراع، وقد وصف الله تعالى المفترين بأوصاف مخيفة، وصفهم بالكفر، والشرك، والظلم، والإفك، والإضلال، والإجرام، فاستحقوا لأجل هذه الخصال اللعنة من الله. وكل هذا يدخل في باب الفساد والإفساد، فغاية المنافقين إذن فعل المعاصي، ومحاربة كل خير ومعروف، والإفساد في الأرض.

والفساد ضدَّ الصلاح، فإذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير، والفساد يتناول جميع الشر، فعن أبي العالية - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿**لَا تُفْسِدُوا**﴾:

٢٢٥- «**يعني: لا تعصُوا في الأرض، وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطَّاعة**». [١]

(١) نقله ابن كثير - رحمه الله - وقال: "وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة".

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

٢٢٦- «**أي لا تعملوا بمعصية الله تعالى فكل من عمل بمعصية الله فهو مفسد، والمحرَّمات معصية لله**». [١]

فإذا قيل للمنافقين ﴿**لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ كذبوا وقلبوا الحقائق وقالوا: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾.

والحق أنهم كما قال تعالى: ﴿**هُمُ الْمُفْسِدُونَ**﴾ لأنهم أهل ضلال ونفاق ومعصية وشر وفساد، ولأنهم مخدوعون فإن الله تعالى ختم الآية بنفي شعورهم بالفساد والإفساد فقال: ﴿**وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾.

إنهم فقدوا الشعور والإحساس فهم في غفلة عن فسادهم، وبالتالي فإنهم يمارسون الفساد والإفساد على أنه - بزعمهم - صلاح وإصلاح! وهذا من الجهل المركَّب أن يكون الإنسان مفسداً وهو لا يشعر بذلك، مع أن أثر فساده ظاهر يراه هو بعينه قبل أن يراه غيره، مما يؤكد لك أن المنافقين لم يعودوا مدركين عاقبة ما يفعلونه بعد عقاب الله لهم في الدنيا، لأنهم لا يشعرون بعمق المأساة التي ألحقها الله بهم بسبب استكبارهم ونفاقهم وفسادهم، فإنهم يفعلون المعصية على علم، ويمارسون الباطل على دراية، ويعتبرون ذلك صلاحاً وإصلاحاً! فأي فساد أعظم من هذا؟ قال بعض المفسرين:

٢٢٧- «**تصورا إفسادهم إصلاحاً لما في قلوبهم من مرض**».

حتى استحقوا لأجل مرض قلوبهم وفساد مفاهيمهم عقوبة الله العاجلة وهي غفلتهم عن العذاب الأليم في الآخرة، فإن عطب آلاتهم ابتداء من القلب وانتهاء بالإحساس والشعور يجعلك في الغالب تتوقع لهم سوء الخاتمة.

---

(١) "مجموع الفتاوى" (٢٦٦/٣١).

ولم تتوقف نتائج خيبتهم عند حدٍّ أنهم لا يشعرون بخداع أنفسهم، بل ويظنون لخساستهم، وحماقتهم، وجهلهم، وعنادهم، أنهم مصلحون!

إن المرارة التي انتجتها قلوب المنافقين المريضة أثَّرت عليهم وقلبت موازينهم حتى أصبحوا يرون - على سبيل المثال - الفساد صلاحاً، والإفساد إصلاحاً، كما قال تعالى:

٢٢٨- ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا . . (٨)**﴾[١]

والسبب بيَّنه الله تعالى في سورة «الأنعام» فقال:

٢٢٩- ﴿**. . . وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣)**﴾

هذه القلوب المريضة القاسية، وهذه المعتقدات الفاسدة المعوَّجة، جعلتهم في الآخرة من أخسر الناس، كما قال تعالى:

٢٣٠- ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)**﴾[٢]

وعن ثوبان عن النبي ﷺ:

٢٣١- «**لأعلمنَّ أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثال جبال تهامة، بيضاً، فيجعلُها الله هباءً منثوراً**».

قال ثوبان:

٢٣٢- «**يا رسول الله! صفهم لنا، جلِّهم لنا؛ أن لا نكون منهم و نحن لا نعلم**».

قال:

٢٣٣- «**أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خَلَوْا بمحارم الله انتهكوها**».[٣]

---

(١) سورة "فاطر".

(٢) سورة "الكهف".

(٣) أخرجه ابن ماجه"، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٥٠٥).

وقوله تعالى في الآية ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ**﴾ ردٌّ على تسترهم بالصلاح والإصلاح، وسوف نتعرض - إن شاء الله - لفسادهم في المجتمعات، ونبيِّن أنهم أكثر الناس أهلية لارتكاب المعاصي، وابتداع المبتدعات، وإثارة الفتن بين المسلمين، وتحريض أعداء الله على كل من جعل ولاءه خالصاً لله عز وجل.

ومن أبرز معاصي هؤلاء المنافقين، تكذيب الرسول ﷺ وإلقاء الشبه في طريق دعوته، والتحالف مع المشركين ضد المسلمين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

ولا تزال طوائف المنافقين والمبتدعة الضالين في شتى البقاع -إلى يومنا هذا- تكذِّب وتحارب «الطائفة المنصورة والفرقة الناجية» في القدس، وتعمل جهدها في إلقاء الشبه، باستعمال شتى أنواع الكذب والافتراءات والصدِّ عن سبيل الله.

وقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**﴾ من غير إسناد الفعل إلى جهة معينة بذاتها، مما يشعرك أن رسائل عديدة تصلهم صريحة، وغير صريحة، وعبر كل وسائل الاتصال تنصحهم قائلة: ﴿**لَا تُفْسِدُوا**﴾ فيكون جوابهم المعَدُّ سلفاً: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾!

فالمكالمات والخطابات الجارية، والكتب المرسلة للمنافقين التي تنهاهم عن الفساد سجلها الله تعالى باعتبارها تكذيباً لهم، وإخباراً بفسادهم، بل وحصر الفساد فيهم، ووصفهم بالجهل المركب لعدم شعورهم.

ومن جهلهم أن في جوابهم مبالغة؛ إذ حصروا الإصلاح في أنفسهم، وأكدوا على ذلك بقولهم: ﴿**إِنَّمَا**﴾.

وفي بقية الجملة أكَّدوا للناصحين أن شأنهم وديدنهم الإصلاح، وأن الإصلاح راسخ في أخلاقهم وتصرفاتهم وسلوكياتهم، بل زكّوا أنفسهم

تزكية أبهتت ناصحيهم وألجمتهم ـ وقد كشفوا أستار حقيقتهم ـ فتركوهم وكلُّهم استغراب من جراءتهم ووقاحتهم، بل وابتعدوا عنهم خشية من بذاءتهم وفحشهم إن هم عاودوا نهيهم عن الفساد.

واستعمل المنافقون دعوى الإصلاح في جوابهم ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ لجهتين:

الأولى: لا تدري ما هو النفاق ولا تعرف المنافقين، ولا تتعلم منهاج النبوَّة والسلف، فيكون مراد المنافقين من جوابهم لهؤلاء أننا نفعل وفق ما جاء به النبي ﷺ، (نحن على الكتاب والسنة)!! وبعض طوائف المنافقين يدَّعون كذباً أنهم (السلفيون)! بل وتزعم طائفة مردت على النفاق أنهم (كل السلفيين)!!!

والثانية: هي الفرقة الناجية تعلم ما هو النفاق، وتعرف المنافقين، لذا فإنها كشفت ألاعيبهم، واطلعت على شبهاتهم، فيكون مرادهم من جوابهم -المشار إليه أعلاه- التمويه، واللعب بالنصوص الشرعية، واعتماد التأويل الفاسد فيما ذهبوا إليه من فنون الخداع والتزوير، فحججهم على نحو: (**إنما قصدنا بقولنا كذا وكذا**)، و(**إنما أردنا من فعلنا كذا وكذا**)، بقصد التمويه، فهم متلونون، لهم جواب لكل حالة؛ ولكل جهة!

وقد يعللون - إمعاناً في التضليل - بأنهم يريدون تقريب وجهات النظر بين فريقي الحق والباطل!! بهدف الإصلاح على حدِّ زعمهم.

وقد مارس كبيرهم دجّال العصر المدعو «علي الحلبي» المقيم في عمان - الأردن، وأعوانه في الأردن وفلسطين، هذا اللون من النفاق، حتى سقط على أم رأسه وانكشف نفاقه للناس - ولله الحمد -

ولا تزال طوائف من المنافقين مستمرّين بهذا اللون من النفاق، وبألوان أخرى حسب ما تقتضي به الأحوال والظروف، ويستحدثون تعليلات تلو

تعليلات يتخذونها مطية لزعمهم الكاذب أنهم مصلحون غير مفسدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

٢٣٤- «**فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَفْعَالِهِمْ إِسْرَارَ خِلَافِ مَا يُظْهِرُونَ وَهُمْ يَرَوْنَ هَذَا صَلَاحًا**».

وقيل:

٢٣٥- «**أَرَادُوا أَنَّ هَذَا صَلَاحٌ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ الدَّوْلَةَ إِنْ كَانَتْ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَدْ أَمِنُوا بِمُتَابَعَتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ لِلْكُفَّارِ؛ فَقَدْ أَمِنُوهُمْ بِمُصَافَاتِهِمْ**».[1]

ولما كانوا قد قابلوا النهي عن الإفساد بدعوى الإصلاح أكذبهم الله بقوله: ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ**﴾.

فعلى أهل الحق والصدق إهمال ادعاء المنافقين الإصلاح لأنهم فاسدون ومفسدون.

وجعل الله تعالى ظرف إفسادهم ﴿**فِي الْأَرْضِ**﴾ كلها، مع أنهم قد يكونون في مكان ما من الأرض. لكن القرآن كشف لنا أن نتن المنافقين من غير معالجة يؤدي حتماً إلى انتقاله ليشمل الأرض كلها. كما قال تعالى:

٢٣٦- ﴿**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ. (٢٠٥)**﴾[2]

والفساد: التلف، والعطب، وتحول الشيء من كونه صالحاً نافعاً، إلى كونه غير صالح ولا نافع، بل ربما يصير ضاراً كريهاً مفسداً للأشياء الصالحة.

يقال لغة: فسد اللحم إذا أنتن وصار ضاراً، وكذلك كل شيء يتحول إلى كونه مؤذياً أو ضاراً فقد فسد.

وإفساد الشيء يعني تحويله من جانب النفع إلى جانب الضرر، فكيف بمن يسعى في الأرض كلها لإفسادها، قال تعالى:

---

(١) "مجموع الفتاوى"(٧/٨٤).

(٢) سورة "البقرة".

٢٣٧- ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا . . (٥٦)﴾[١]

فإفساد الأرض يعني تحويلها إلى المعصية بعد أن كانت عامرة بطاعة الله تعالى، فالمنافقون غايتهم الفساد، بل إن الفساد أخص مشروعاتهم، يستثمرونه لإنتاج المزيد منه، فالمنافق يصرف كل همَّته في هذا الشأن ويتفنن في انتاج أنواع منه، ابتداءً من إفساد الدين بالشرك والكفر والبدعة، وانتهاء بأعمال إجرامية أخرى تتمثل بإهلاك الحرث والنسل. ويكون ذلك:

بإفساد الزروع بالكيماويات أو ما يشبه ذلك.

أو بإفساد النفوس بالقتل، أو الحرق، أو التشويه، أو بتنشئتها وتربيتها على الذلَّة والهوان، أو بتعبيدها لغير الله، أو ما يشبه ذلك.

أو بإفساد دنيا الناس بالربا، والظلم، والمحسوبية، ومشروعات القمار، إلى غير ذلك من أنواع الفساد التي تخرب بيوت الناس وتجعلها جحيماً لا يطاق، او ما يشبه ذلك.

أو بإفساد العلاقات الاجتماعية بالغيبة والنميمة، وتحريض الزوج على زوجته او العكس، وتدبير المكايد بين فئات الناس، أو زرع العصبيات، أو التشجيع على تشكيل الأحزاب، أو ما يشبه ذلك.

وقد نبَّه الله تعالى في مطلع سورة «الفجر» وهي من أوائل سور التنزيل، على جرم الفساد وبيَّن خطورته وعاقبته، فذكر فيها أقواماً ووصفهم بأنهم:

٢٣٨- ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢)﴾

فإنهم أكثروا الفساد وتجرؤوا على المعاصي وتجبَّروا على أنبياء الله وعلى المؤمنين. ففي الآيات تنبيه وتقريع لمن بعدهم أن لا يعملوا بمثل عملهم فينزل بهم ما أنزل بأولئك؛ مع بأسهم وشدَّتهم وعددهم وأموالهم التي أنفقوها

(١) سورة "الأعراف".

في ذات العماد، وما فعلته ثمود في جوب الصخر، وفرعون ذو الأوتاد فاعل أفاعيله الهائلة المنكرة، كيف أفناهم وأبادهم ومحا آثارهم وجعلهم عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين. وقوله تعالى في السورة:

٢٣٩- ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(١٤)﴾

كناية عن مراقبة الله للمجرمين دواماً، فلا يتركهم لطغيانهم، بل هذا من آثار رحمته سبحانه وربوبيته، فالله تعالى بالمرصاد لكل من طغى، واعتدى، وتكبَّر، وأفسد، فإنه له بالمرصاد سوف يعاقبه ويؤاخذه، فالآية تفيد التهديد والوعيد لمن استكبر عن عبادة الله، أو كذَّب خبره، أو عصى وأفسد في الأرض، وفي مضمون ما تقدم؛ رسالة إنذار لكل من خالف الرسالة العظيمة وصدَّ عن الدعوة السلفية في القدس وينتصر للمنافقين.

ولأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، فالفساد في الأرض بالعصيان والاستكبار، لذا كان عاقبة من قالوا:

٢٤٠- ﴿. . سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا. . (٩٣)﴾[1]

أنهم نالوا بسبب أعمالهم الفاسدة ما يستحقونه، فكان أن منعهم الله أولاً فهم الحجج والأدلة، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

٢٤١- «**كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل**».

وإصرار العصاة المنافقين في أمة بني إسرائيل على المخالفة والابتداع والفساد قادهم إلى شؤم الكفر بحبهم العجل.

فالفاسدون وإن اتضحت أمامهم معالم الهدى والسداد والصواب والحق، لكنهم في الحقيقة يؤثرون طريق الضلال والباطل. فهم لاستكبارهم عن الحق أو استحقارهم للناس، تختل رؤيتهم بسبب انهماكهم في الهوى

(١) سورة «البقرة».

وحبِّ الجاه؛ فيعصون الله.

واعلم أن ظهور الفساد وانتشاره في المجتمع لا يتم عبثاً ولا اعتباطاً، وإنما يتم لأسباب منها إعراض الناس عن طاعة الله تعالى واستكبارهم عن اتباع الحق، وارتكابهم المعاصي، قال تعالى:

٢٤٢- ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ . . (٤١)**﴾[1]

وبانت آثار الفساد في البر والبحر فانتزعت البركة، ونقصت الثمار والزروع، وكثرت الأمراض، ووقع الهرج، وسفكت الدماء، وارتفعت وتيرة الأحقاد والعدوان بين الناس. فلم يتوقف فعل العصاة المنافقين عند حدِّ فسادهم العقدي بل تعدّى في الأرض إلى إفساد الدين، والأخلاق، والأعمال، والأرزاق. عن مالك بن دينار قال:

٢٤٣- «**أقسم لكم لو نبت للمنافقين أذناب ما وجد المؤمنون أرضاً يمشون عليها**».

وهذا الأثر أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧٦) قال:

٢٤٤- «**حدثنا أبو بكر بن مالك، قال: ثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني علي بن مسلم، قال: ثنا سيار، قال: ثنا جعفر، قال: سمعت مالكاً يقول: فذكره**».

وعلي بن مسلم هو: ابن سعيد الطوسي، أبو الحسن، ثقة، روى عنه البخاري، وأبو داود، والنسائي، توفي سنة ٢٥٣ هـ.

وسيار هو: ابن حاتم العنزي، صدوق وفيه كلام يسير، مات سنة ١٩٩هـ.

وجعفر هو: ابن سليمان الضبعي البصري، يكنى أبا سليمان، ثقة فيه تشيع، مات سنة ١٧٨ هـ.

ومالك بن دينار أبو يحيي البصري صاحب الأثر ثقة، قال الإمام الذهبي:

---

(١) سورة "الروم".

«صدوق ما علمت فيه جرحاً، وقد قال فيه النسائي ثقة، وخرَّج له مسلم متابعة، والبخاري تعليقاً». مات سنة ١٢٣هـ.

فالأثر إسناده لا بأس به، ويحتج به لا سيما وله شواهد منها أن النبي ﷺ قال:

٢٤٥- «**وإن من الأنبياء نبياً ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد**». (١)

وقوله:

٢٤٦- «**عرضت علي الأمم فرأيت النبي - صلى الله عليه و سلم - ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد . . . .** الحديث». (٢)

وعن ابن القيم - رحمه الله -قال:

٢٤٧- «**كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات وتتعطل بهم أسباب المعايش وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات**». (٣)

ولا شك أيضاً أن الشواهد من الواقع - اليوم - تشهد لأثر مالك بن دينار، فإن ظهور النفاق بات واضحاً لذي عينين، وسوف نأتي على بيان ذلك في بحثنا - إن شاء الله -.

وقد نفى الله تعالى في سورة البقرة. وهي من أوائل السور المدنية -نزولاً- محبته للفساد فقال:

٢٤٨- ﴿. . **وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ(٢٠٥)**﴾

ونفى في سورة «المائدة» محبته للمفسدين فقال:

٢٤٩- ﴿. . **وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)**﴾.

---

(١) أخرجه مسلم، وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٣٩٧).

(٢) متفق عليه

(٣) «مدارج السالكين» (١/٣٥٨).

ويأخذك العجب والاستغراب وأنت ترى كمّا هائلاً من العلماء السوء المفسدين وأمثالهم من محبي الرياسة؛ فإنهم يؤثرون الدنيا، ويتبعون الشبهات لأجل الوصول إلى أغراضهم من الشهوات!!

وفيما تقدّم نخلص إلى أن المنافق اتخذ لشخصيته تركيبة معقدة، ألَّف فيها بين سموم النفاق التي نبتت في آلة قلبه، وبين بثِّه لهذه السموم من خلال آلات جوارحه، فهو يتظاهر بالإيمان، ويخادع ويراوغ بفن، ويكذب بعنجهية، ويدّعي الصلاح بدون مبالاة، حتى غدا بهذه الصفات - التي ظهرت لدينا حتى هذه اللحظة - مخلوقاً في غاية الخطورة، ليس خطيراً على نفسه فحسب بعد أن خدعها وأوهمها، بل على المجتمعات الإنسانية بأسرها، لأننا رأيناه لا يكتفي ببث سمومه الفاسدة على من حوله من الناس، بل على الأرض كلها.

واعلم أن أعظم الفساد: النفاق الذي فيه الكفر بالله، والشرك به، كما قال ابن تيمية -رحمه الله-:

٢٥٠- «**فَالشِّرْكُ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى غَيْرِ اللَّه، وَإِقَامَةُ مَعْبُودٍ غَيْرِه، أَوْ مُطَاعٍ مُتَّبَعٍ غَيْرِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُوَ أَعْظَمُ الْفَسَادِ**».[1]

ولذلك قرن الله تعالى النفاق بموبقات كثيرة: قرنه بالكفر، والشرك، والفسق، والتظاهر بالإيمان، والتظاهر بالصلاح، والكذب، والخداع، والفساد بكل أنواعه، وقرنه بالشر، والغدر، وشدَّة الخصام، وإخلاف الوعد، والخيانة، والضلال، إلى غير ذلك من ألوان الموبقات التي سنتعرض لها في بحثنا - إن شاء الله -.

وقرن الله تعالى المنافقين بخصال في غاية السوء ونعتهم بنعوت في منتهى

(١) "مجموع الفتاوى" (٢٤/١٥).

الحقارة، وقرنهم بالصدِّ عن سبيل الله، والإضلال، والإفساد، وبموالاة الكفار، وبالنار، وبالدرك الأسفل منها، وقرنهم بالطعن بدين الله، ومحاربة الله ورسوله، والطعن بالصحابة، والطعن بالطائفة المنصورة والفرقة الناجية، إلى غير ذلك مما سنتعرض له في بحثنا – إن شاء الله – .

وكما أن الشرك بالله والكفر به أعظم الفساد، فإن الإيمان بالله وتوحيده، والتقرب إليه بما شرع من الأعمال الصالحة من أعظم الصلاح .

لذلك قرن الله تعالى الصلاح بتوحيده وبتوحيد أسمائه وصفاته، وقرنه بالخير، وبالعمل الصالح، وقرن المؤمنين بالحق، وبالدعوة إلى الله، وبمحبة الله، وباتباع النبي ﷺ، وقرنهم بالجنة، وقرنهم بخصال حسنة كثيرة هي بخلاف ما عليه الكفار والمنافقون، قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– :

٢٥١– «**فَأَصْلُ الصَّلَاحِ : التَّوْحِيدُ وَالْإِيمَانُ، وَأَصْلُ الْفَسَادِ : الشِّرْكُ وَالْكُفْرُ**» .[1]

انتهى الجزء الأول

ويليه قريباً –إن شاء الله– الجزء الثاني

(١) "مجموع الفتاوى"(١٨/١٦٣).

صدر للمؤلف

1. إنارة سبل الأنام بإفشاء السلام.
2. اقرأ ثم اكتب وصيَّتك.
3. دروس تبسيط العقيدة الإسلامية.
4. إتحاف الأنام في فضائل المسجد الأقصى والشام.
5. النقد والإحصا للأحاديث الضعيفة والموضوعة في فضل القدس والمسجد الأقصى.
6. تبصير المسلمين إلى الصراط المستقيم.
7. كيف نفهم وحدة الصف من سورة "الصف".
8. وحدة الصف من تسوية الصف.
9. من سير الصالحين: قصة أبي القرن.
10. زمن الهرج باختصار: القاتل والمقتول في النار.
11. العدل والإنصاف من خصائص أهل السُّنَّة والجماعة.
12. نور على الدرب "كلمات في الدعوة والمنهاج".
13. التفسير السلفي للقرآن الكريم "تفسير عشر سور من القرآن حسب النزول".
14. السلفيون في القدس ـ اليوم ـ هم الطائفة المنصورة والفرقة الناجية. الطبعة الثانية.
15. سيرة إبراهيم الخليل في القرآن المجيد والأحاديث الصحيحة.
16. دعوتنا سلفيَّة لا وهّابيَّة.
17. النور المبين في الخبر الأمين تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾.

18. ابتلاء الناس بالدين في ضوء قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾.
19. الجزء الأول والثاني من كتاب القرآن في منهاجِ الطائفة المنصورة "حلقات علمية في تفسير القرآن على منهاج النبوَّة والسَّلَف".
20. إعلام الفهّامة بأن أعظم كرامة لزوم الاستقامة. الطبعة الثانية.
21. الجزء الأول من كتاب: المنافقون ﴿هم العدو فاحذرهم﴾.
22. ومقالات أخرى.